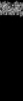
العدد الثاني عشر - السنة الرابعة
١٩٧٠

ديوچين

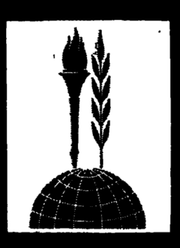
مصباح الفكر



تصدر عن مجلة رسالة اليونسكو



ومركز مطبوعات اليونسكو



ديوجين

مصباح الفكر

تصدر عن مركز مطبوعات اليونسكو ومجلة رسالة اليونسكو

١ شارع طلعت حرب ــ القاهرة

العدد الثانى عشر

السنة الرابعة

١٩٧٠

مقالات هذا العدد

صفحة



ديوجين ... إضافة جديدة

... وهى اضافة طيبة ، تزيد من حجم هذه الأسرة واحدة من اعمق المجلات العلمية ، ذات المستوى الرفيع فى تاريخ الفكر الانسانى .

ومن الاضافات ما يضيف ثقلا على كاهل الأسرة ، ومنها ما يزيد من اعبائها ، لكن منها مع ذلك ما يضـــاعف من قدرة الأسرة ، ويقوى من عزيمتها ، نتيجة لمـا توفره لها هذه الاضافة الجديدة من عزة واعتزاز .

ان ((ديوجين)) مجلة يصدرها المجلس الدولى للفلسفة والعلوم الانسانية بباريس منذ سنة ١٩٥٢ ، وهذا المجلس واحد من المجالس ذات الشأن ، التى نشأت فى كنف هيئة اليونسكو ، وتحت رعايتها .

ومنذ صدرت مجلة ((ديوجين)) ، وهى تجذب اليها انتباه العلماء ورجال البحث العلمى والمعنيين بقضايا الفكر .

إلى مجلات مركز مطبوعات اليونسكو

لكنها كانت تصدر بخمس لغات ، هى : الفرنسية ، والانجليزية ، والألمانية ، والايطالية ، والاسبانية •

وإيمانا من الشعبة القومية لليونسكو باهمية تيســير الاطلاع عليها فى المنطقة العربية فقد اتجه الرأى الى اصدارها باللغة العربية •

وصدر العدد الأول منها سنة ١٩٥٦ ، تحت اشراف ادارة الثقافة العامة بوزارة التربية والتعليم •

وتولى رياسة تحريرها الصـــديق والزميل المرحوم الأستاذ مصطفى حبيب ، تعاونه نخبة ممتازة من المثقفين العاملين معه •

لكن العبء لم يكن سهلا اذاك ، فتوقف صدورها الى سنة ١٩٦٠ ، حيث صدر العدد الثانى ، ثم تعرضت المجلة لمثل تلك الظروف مرة اخرى •

لكن هذين العددين ، مع هذا ، قد مهدا الطريق الى انتظام صدورها ، وتركا فى نفوس المتصلين بها أثرا حمل هيئة اليونسكو والمجلس الدولى للفلسفة والعلوم الاجتماعية على التعاقد مع الشعبة القومية لليونسكو بالقاهرة على اصدار مجلة ((ديوجين)) باللغة العربية مرتين كل عام .

وفى شهر مايو ١٩٦٦ صدر العدد الثالث من مجلة ((ديوجين)) ، واستمرت فى الصدور مرتين كل عام ، حتى آتمت من عمرها أحد عشر عددا كاملة .

وعندما أنشىء مركز مطبوعات اليونسكو ، بمقتضى قرار السيد وزير التعليم العالى ورئيس الشعبة القومية لليونسكو رقم ٣١٢ لسنة ١٩٧٠ ، اتجه الرأى الى اسناد مهمة اصدار مجلة ((ديوجين)) الى المركز ، على النسق الذى صدرت به المجلات الثلاث الجديدة ، وهى :

- المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية
- مجلة اليونسكو للمكتبات
- مجلة العلم والمجتمع

وستصبح مجلة ((ديوجين)) هى الاضافة الجديدة الى هذه الأسرة الصغيرة المتواضعة ، التى تصدرها هيئة تحرير مجلة ((رسالة اليونسكو)) ومركز مطبوعات اليونسكو .

ولعله من حسن الطالع أن تاتى هذه الاضافة مع بشائر العام الجديد ، وأن تقترن باسم مجلة دولية تحمل اسم فيلسوف اغريقى عاش حياته كلها يبحث عن الحقيقة ، ويحمل فى يده مصباحه فى ضوء الشمس ، لأن ضوء الشمس الساطع لم يكن يكفيه وهو يبحث عنها .

ومنذ أيام ديوجين ، الذى عاش فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، وحتى اليوم ، والبحث عن الحقيقة هو هدف العلماء ورجال الفكر والفلسفة والفنون .

بل ان المحقق أن هذا الهدف قد كان أبعد فى أغوار التاريخ ، فقد شهدت حضارة مصر القديمة باحثين عن الحقيقة قبل الميلاد بآلاف السنين .

ان حكم أبيوير كانت بحثا عن الحقيقة ، ونصائح الملك لابنه مريكارع كانت بحثا عن الحقيقـة ٠

وثورة أخناتون كانت كذلك بحثا عن الحقيقة ٠

بل لقد كان البحث عن الحقيقة هدف كل حضارة منذ القدم ، ولم يكن مقصورا على مصر أو اليونان ، ففي الصين ظهر كونفوشيوس يبحث عن الحقيقة ، وفي الهند ظهر بوذا يبحث عن الحقيقة ، وفي بابل ظهر حمورابي يبحث عن الحقيقة ٠

لكن ((ديوجين)) قد كان أكثر هؤلاء القدماء تضحية في سـبيل هذا البحث الشـاق ٠

لقد عزف عن الدنيا وعن السلطة ٠

بل لقد وضع غايته فوق حاجته ، فعاش على كسرة خبز جافة ، ليملأ عقـله بالبحث عن غايته ٠

لهذا صار علما على كل الذين سبقوه وكل الذين عقبوه ، ولخصت مواقفه كل هذا التاريخ في البحث الجاد المخلص عن الحق والعـدل والحرية ، وتلك هي أهم عناصر الحقيقة ٠

لهذا فاننا في هيئة تحرير مركز مطبوعات اليونسكو نشعر بالفأل الحسن ، ونحن نستقبل هذه الاضافة الجديدة الى أسرتنا ، فرحين بها ، معانقين لها ، بكل مانملكة من الحماسـة ٠

على أن غمرة هذا الشعور لن تصرفنا عن تحية ذكرى الزميل العزيز الذى بدأ هذا الشوط ، فأشرف على اصدار الأعداد السابقة من هذه المجلة ٠

اننا نذكر الزميل العزيز الأستاذ مصطفى حبيب بكل اعزاز ، ونحيي ذكراه في احترام ٠

ونذكر الجهد الكبير الذى بذله معه معاونوه من أعضاء هيئة التحرير التي شاركته هذه المسـئولية ٠

ونذكر جهد المختصين فى الشعبة القومية لليونسكو وأعضاء لجانها الفنية من المتخصصين الأجلاء ، الذين حملوا العبء بعد وفاة الأستاذ مصطفى حبيب حتى يصل الينا عزيزا قويا ، على ما سنراه فى مواد هذا العدد •

لقد كان العالم الكبير الدكتور فؤاد زكريا على رأس هذه المجموعة من الأساتذة ، وفى الحق ، فان اختيار مواد هذا العدد ، والاشراف على ترجمته ومراجعته ، يرجع فضله اليه واليهم •

واذا كنا نرجو من الله شيئا فهو أن يوفقنا الى أن نكون فى مستوى البدايات الأولى للأعداد السابقة من هذه المجلة ، وأن نوفق فى أن تصدر بعد ذلك مرتين فى العام بانتظام ، وأن نضيف ما نستطيعه من جهد ، لتستمر عجلة التقدم ماضية فى طريقها •

والله المسئول أن يحقق هذا الرجاء ••

عبد المنعم الصاوى

المستقبل للقيم الجمالية

كارل آشنبرينر

د. فؤاد حسن زكريا

المقـال فى كلمات

هل تصبح للقيم الجمالية اليد الطولى فى عالم تمزق أوصاله الخلافات السياسية والمذهبية والاقتصادية وتخيم فى سمائه نذر حرب شـاملة لاتبقى ولا تذر ؟ ان لكل عصر فى نظر الكاتب قيمه الخاصة التى تجب ماعداها من القيم ، فقد كانت روما مثلا تضفى قيمة عالية على النظام الاجتماعى ولا تلقى بالا الى الروحانيات ، وذلك على نقيض العصور الوسطى التى كان للدين فيها المكانة العليا · وحينما حل القرن التاسع عشر انزوت جميع القيم وأصبحت القيمة الكبرى للصناعة والسـيطرة المادية على الطبيعة · اما فى عصرنا هذا فالرخاء المادى له القدح المعلى · ويعتقد الكاتب أن القيم الجمالية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالقيم الاقتصادية ، وأن القيمة الجمالية قيمة ينبغى أن تتجسد فى الوسائط المادية · ومن ثم فان الأمان المادى والرخاء هما الأساس الحقيقى لصدارة القيم الجمالية ، كما أن الكفاية الاقتصادية هى فى الواقع الشرط الضرورى لازدهار هذه القيم ، فالانسان بطبيعته يعتبر تجميل حياته فى المحل الثانى بعد اقامة أوده واشباع حاجاته المادية · ويرى الكاتب أن الرخاء المادى فى عصرنا هذا سـوف يتحقق نتيجة لسعى الانسان المتواصل للسيطرة على أساليب الانتاج الصـناعى ، ولاحتمال استخلاص طاقة لانهاية لها من داخل الذرة · اذا تحقق هذا ، وليس هـذا أمرا مستحيلا ، فسوف تحل مشاكل العالم السياسية التى هى فى الحقيقة وليـدة

مشاكله الاقتصادية • عندئذ ستحتل القيم الجمالية قدرا من الصدارة يجعلها لاتشغل النصيب الأكبر من وقت الناس وفكرهم فحسب ، بل تتحكم فى اتجاه أفعالهم فى الحياة بوجه عام •

أيكون فى عنوان مقالنا هذا من المفارقة ، ومن الافتقار الى الواقعية ، بقدر ما يوحى به للوهلة الأولى ؟ لاشك فى أن المرء يحتاج الى قدر غير قليل من قوة الحجة والقدرة على التأثير فى النفوس ، لكى يقنع أى شخص بأن عالما تمزقه المنازعات والمصاعب الاقتصادية ، والنتائج المترتبة على الحرب ، والحرب نفسها ، يوشك أن يبدأ عصرا ذهبيا من أى نوع • غير أن ما هو بسبيل الحدوث ليس عالما طوباويا ، فضلا عن أنه - أيا كان - لن يولد على حين غرة • ان ماتوحى به التغيرات الهامة التى تطرأ على اتجاه الأحوال البشرية ليس أول صراخ لطفل وليد ، وانما هو أول عمل مذهل يقوم به كائن بلغ بالفعل مرحلة الشباب ، ويسير بخطى حثيثة ليحتل وسط المسرح ، ولن يكون من الممكن اسكات صوته بعد ذلك • والواقع أن عصر النهضة الأوربية يقدم الينا مثلا واضح الدلالة على ما نقول ، فنحن لانعرف الأصول الأولى لذلك التغير الذى وصل الى مرحلة النضج فى كتاب بيكون « الأورجانون الجديد » • وحين نتأمل هذا الكتاب بنظرة راجعة يبدو لنا شيئا بلغ بالفعل قدرا كبيرا من التقدم ، بل انه ليبدو أشبه مايكون بتخطيط لمؤامرة يقوم بها العلماء لكى يضفوا على العالم صورة جديدة ، عالما يبرر السعى فيه الى المعرفة التماس مزيد من القوة • ويقول بيكون ان تحقيق ذلك كان يقتضى « أن أجعل عقلى خاضعا للأشياء » •

على أن المجال الجديد ، مجال الجماليات ، الذى يجرى الاعداد له الآن ، هو الخطوة التى تلى خضوع العقل على هذا النحو للأشياء • فالقيمة الجمالية قيمة ينبغى أن تتجسد فى الوسائط المادية أو الظاهرية ، أيا كان مقدار ايغالها فى باب الخيال ، وهى فى هذه الناحية تشترك مع القيمة الاقتصادية • وسوف نستخدم هذا التعبير الأخير ، أعنى القيمة الاقتصادية ، بمعنى اشباع ضرورات الحياة ، التى قد يكون من بينها قدر معين من رغد العيش المادى ، أو القدرة عليه • ولو نظرنا الى اكتساب وقت الفراغ ، الذى هو أفضل مناخ تتحقق فيه سيادة القيمة الجمالية ، لوجدنا أنه كان على الدوام هدفا ثانويا على الأقل من أهداف اسهام الفرد فى النظام الاقتصادى للانتاج • غير أن الحاجات الجمالية واشباعها لاينتظران بلوغ وقت الفراغ كاملا • ففى كثير من الأحيان تراهما متشابكين فى نسيج أكثر أنواع النشاط اعتيادا • وفيما عدا ذلك فانهما يلتمسان لذاتهما فحسب ، بوصفهما فنونا جميلة ، كلما خمد صوت الحاجات الاقتصادية البحتة وأشبعت فى وقت الفراغ •

وهدفنا في هذا المقال هو أن نتبين الى أى حد نقترب من تحقيق مثل هـذه الغاية ، لا بالنسبة الى القلة وحدها ، بل الى الكثرة أيضا • ولكن ينبغى أن ننبه ، كما أشرنا من قبل ، الى أن ما يبشر به هذا التطور ليس عصرا ذهبيا ، الا بقدر ما نتصور مقدما أن كل ما سيتحقق فى المستقبل ذهبى • فما نتوقعه هنا ليس واحدا من تلك الآمال الضحلة التى كثيرا ما يرجىء التاريخ البشرى تحقيقها ، وانما هو شىء واحد ، وشىء واحد فقط ، أعنى عصرا سوف تحتل فيه القيم الجمالية وكل ما يتصل بها قدرا من الصدارة يجعلها لا تشغل النصيب الأكبر من وقت الناس وفكرهم فحسب ، بل تتحكم بدورها فى اتجاه أفعالهم فى الحياة بوجه عام • وقد يحدث أى عدد من الكوارث يؤدى الى زوال هذه الامكانات ، ولكن هذه الأخيرة ، فى عمومها ، تتصف بطابع من شأنه أنه لو حدثت هذه الكوارث لضاع ما هو أكثر بكثير من القيم والآمال الجمالية • ومن جهة أخرى فكلما تعاظم الأمل الجمالى كان من المرجح أن يتضاءل خطر هـذه الكوارث • فلنبحث الآن فى الأسباب التى تؤدى بنا الى ترقب ذلك التغيير الذى اقتصرنا حتى الآن على ذكر اسمه • وسيكون علينا أولا أن نبرر استخدام تعميمات واسعة معينة تتعلق بسيطرة القيم ، ثم نبحث فى الجماليات منظورا اليها من خلال هـذا الدور المسيطر نفسـه •

ان أفعال البشر تصنف ، فى عمومها ، الى فئات تتدرج هذه الأفعال تحتها : كالفن ، والعلم ، والصناعة ، والدين ، وما الى ذلك • ويمكن أن يصبح هذا التصنيف واسعا وأساسيا الى حد يتضح معه أن كل عصر من عصور التاريخ قد كرس بعضا من جهوده لكل فئة من هذه الفئات ، أو يمكن أن يصبح أضيق ، بحيث اننا حين نتأمل كل عصر على نحو أدق نستطيع أن نرى فيه ازدهارا خاصا لواحد من أوجه النشـاط هذه ، وتخلفا نسبيا فى بقية الأوجه ، وهكذا فاننا عندما نفكر فى العصور الوسطى يخطر ببالنا الدين على الفور ، مثلما تخطر ببالنا الصناعة والسيطرة المادية على الطبيعة عندما نستعرض بأذهاننا القرن الماضى • صحيح أننا جميعا أصبحنا على وعى بالأخطار التى تكمن فى وضع بطاقات محددة على العصور البشرية ، بطريقة مشابهة لطريقة أوجست كونت ، فنسمى هذا عصر الايمان ، وذاك عصر الفن ، وآخر عصر الآلة ، ولكننا مع ذلك نعود بالضرورة الى هذه الصيغ المعيبة مرارا وتكرارا • والواقع أن فائدتها تتوقف على ما نفعله بها ، كما هو الحال فى جميع التعميمات • وحقيقة الأمر أن كل فهم يتحقق عن طريق ادراك تعميمات تعبر عن سيادة خصائص أو علاقات من نوع ما • ولا مفر لنا ، اذا شئنا تفسير أى شىء ، من أن نتحمل مخاطر هذه التعميمات • مثال ذلك أن جوانب متعددة من أفعال الأوربيين فى العصور الوسطى يستحيل تفسيرها تماما على الملاحظ الذى لايعرف كنه الحماسة الروحية ولايعترف بأنها عامل تفسيرى له أهميته ، ان لم يكن فائق الأهمية فى مواقف معينة ، فلو اقتصر على التعميمات الاقتصادية فى تفسير أفعال الناس ، ولو نظر الى الاستخدام السليم لمهارات مثل تربية الحيوانات ، والتخزين ، والتسويق ، وما الى ذلك ، على أنها هى العلامة الرئيسية على السلوك الحريص ، بل المعقول ، لبدت له بعض مظاهر سلوك انسان العصر الوسيط

حمقاء لاجدوى منها ، كما تبدو بالفعل للشخص الماركسي • فمن الواضح أن انسان العصر الوسيط كان يضفى قيمة عليا على شيء آخر غير السيطرة المادية على الأرض ، والا لاستطاع أن يحرز فى ذلك نجاحا أعظم مما أحرزه بالفعل • فحتى مع التسليم بأن المعرفة العلمية تستغرق وقتا طويلا لكى تتراكم فانه كان يستطيع أن يصل الى قدر أكبر بكثير من السيطرة على الطبيعة لو أنه وضع هذه السيطرة نصب عينيه ، وكرس لها جهوده ، ذلك لأنه لم يكن أقل ذكاء منا ، وكل ما فى الأمر أن موضوعات الايمان كانت عنده أعلى قيمة من اكتساب المعرفة والقوة ، وكل مانود اثباته بهذا هو أن من المفيد البحث عن عوامل موجهة فى مختلف العصور ، وهى عوامل يمكن أن يطلق عليها اسم القيم ، والبحث عن هذه العوامل ليس مفيدا فحسب ، بل انه ضرورى بالنسبة إلى أغراض التفسير •

ان القيمة ، بالمعنى الذى نبحثها به ، تكون لها مكانة عليا فى مجتمع ما ، اذا استطاع أنصارها ، بفضل قوتهم العددية أو نفوذهم أو كليهما معا ، أن يدفعوا المجتمع الى التضحية بالقيم الأخرى من أجلها • ومن هذه الزاوية نجد أن الشرف السياسى أو المجد كانت له الصدارة أحيانا على قيم مادية كان يظن أنها ثمينة بحق ، كالحقول الخصبة أو المدن القديمة • ذلك لأنه عندما كانت الأمور تستدعى اتخاذ قرار كانت المدن والحقول تعرض للتخريب ، بل كانت الحياة البشرية نفسها تعرض للخطر فى الحرب ، من أجل الحفاظ على قيمة أخرى معينة • وبطبيعة الحال فان من الصعب أن نحدد بدقة ما هى القيمة الايجابية التى تكون هى العليا حتى فى حالة كهذه • والأسهل، على وجه العموم ، أن نحدد القيم التى يضحى بها • فهل كان الشرف السياسى هو الذى جعل بريطانيا تواصل الحرب فى عام ١٩٤٠ ؟ لاجدال فى أن هذا ليس هو الاسم الصحيح فى هذه الحالة • وكل ما نعلمه هو أن ما كانت له القيمة العليا لم يكن شيئا ماديا ، اذ أن المادى قد ضحى به عن طيب خاطر دفاعا عن القيمة الروحية المهددة • ولو كانت المحافظة على الحياة ماديا هى وحدها التى تهم لكان من الممكن شراؤها ، بثمن ما • وبالمثل يمكننا أن ندرك أن حرص العصور الوسطى على الرخاء المادى ، والسيطرة على الأرض والبحر والسماء ، والمعرفة الدقيقة بالطبيعة ، وما الى ذلك • كان أقل بكثير من حرصها على النجاة مما كان معرضا للخطر فى تلك الأنشودة المخيفة الفظيعة ، وأعنى بها أنشودة « النقمة الالهية » فى « قداس الموتى » •

لقد كانت روما فى أوج عظمتها تضفى قيمة عالية على النظام الاجتماعى وعلى مقدار معين من النظام الجمالى البصرى ، وتضفى قيمة أقل ، وان ظلت مع ذلك أعلى من كل ما عداها ، على الرخاء المادى • ولم تكن روما تعزو الى الروحانية سوى قيمة ضئيلة ، ولكنها أيضا لم تقم الا بجهد بسيط جدا من أجل الكشف عن الطبيعة ، مالم يكن ذلك استهدافا لغايات عملية ماثلة للعيان • كذلك فان لدينا بطبيعة الحال سجلا حافلا وعميقا بقيم دولة العبرانيين القديمة • ففى المجتمعات الدينية ، أو المجتمعات التى تحكمها سلطة لاهوتية ، كانت تبذل جهود للتحكم فى أبسط سلوك يحدث فى

المجتمع وفقا لمقتضيات قيمة روحية ما • فزراعة القمح ، واختيار الأعداء والحلفاء ، واختيار اللحظات المواتية للقيام بأفعال محددة ، وتشـــييد المدن والأبنية وأماكن العبادة ، وتحديد أسلوبها ، وحجمها ، وطابعها ، وأنماط السلوك فى الزواج والميلاد والوفاة ، واختيار أساليب اللهو ، الخ ، كل ذلك يتحكم فيه قرار يصدره شخص ما ، يحدد ان كانت هذه الأفعال تسهم فى تمجيد الله أو اتقاء غضبه • وانا لنجد فى دولة العبرانيين القديمة ، وفى العصور الوسطى ، وفيما يمكن أن يطلق عليه اسم « نيو انجلند » القديمة ، نماذج قريبة من هذا النمط • كما كانت هناك حالات انحراف عن المثل الأعلى وانهيار فى نهاية الأمر عندما ظهرت قيم أخرى احتلت المكانة العليا • أما القيم الأشورية القديمة ، وقيم اسبرطة ، فكانت مختلفة كل الاختلاف ، يتغلغل فيها المثل الأعلى العسكرى • واذا كان الدين قد ازدهر فلم يكن ذلك ، على خلاف الحالات السابقة ، الا من حيث هو عامل مساعد للحرب •

وفى ثقافتنا الحالية تنطلق أصوات العالم والفنان ورجل الدين ، ناعين على عصرنا أنه لايضفى قيمة عليا على المعرفة أو الفن أو العقيدة الالهية • وهم جميعا يرون أن شيئا آخر هو الذى يبدو على الدوام أنه يشغل المحل الأول فى أذهان الناس خلال الأوقات العصيبة • فبالرغم من الاختلاف بين هذه الأنواع المتعددة من النقاد فانهم جميعا يجدون شيئا يقف معارضا لهم ، أكثر مما يجدون أنفسهم فى موقف المعارضة بعضهم ازاء بعض • ومن الواضح أن ذلك الذى يخرج منتصرا عندما يتعين الاختيار هو ــ أيا كانت طبيعته ــ القيمة العليا فى نظر العصر •

ولن نجهد أنفسنا فى سرد حجج أو ايراد احصاءات لكى نثبت أن الرخاء المادى هو الذى تقدم الصفوف آخر الأمر بوصفه القيمة الأولى فى عصرنا • وحسبنا أن نتذكر الجهود التى يتوقع الناس من الحكومات الحديثة ، شرقا أو غربا ، أن تبذلها من أجل المحافظة على الرخاء المادى فى الحاضر والمستقبل ، لكى ندرك مقدار ابتعادنا عن تلك الحكومة التى لم تكن تستطيع أن ترتكز الا على « الله وحقى » •

وعلى عكس ما يقول به الماركسيون فاننا اذا قمنا باستعراض لثقافات الماضى كان من الصعب أن نجد ثقافة واحدة كان الرخاء المادى فيها هو العامل الأعلى والحاسم الذى يستطيع أن يحفز قبيلة أو أمة كاملة على تكييف كل نشاط آخر وفقا لمقتضياته ، أما تعليل ذلك فلا ينبغى أن نذهب من أجله بعيدا ، فهذا التعليل هو أن تلك القيمة ــ أعنى الرخاء المادى ــ كانت فى الماضى أصعب تحقيقا بكثير بالقياس الى البسالة فى الحرب ، أو الوحدة الروحية مع الله ، أو الولاء لروح الجماعة • صحيح أن أفرادا معينين أو جماعات معينة فى المجتمع قد ينالون منها نصيبا كاملا ــ كما هى الحال فى سائر القيم جميعا ــ ومع ذلك فقد كان من المستحيل أن تصبح هى القيمة العليا فى الحالات التى لم يكن الجميع فيها قادرين على أن يكون لهم نصيبهم منها • فعصرنا هذا هو وحده العصر الذى أصبح فيه الرخاء الاقتصادى فى متناول يد كل انسان ، الى حـد

معقول ، ومن المؤكد أن عقيدة الوطنية ، التى ازدهرت بقوة طوال قرون عدة ، آخذة فى الاضمحلال فى أوربا · فليس من السهل بث الحماسة فى نفوس الفرنسيين عن طريق « المجد » · كما أن السياسة الحكيمة استطاعت أن تجعل من بقايا النازية مجرد نزعة بونابرتية متخلفة فى القرن العشرين ، ففى جميع أرجاء الأرض ينظر الى التمكن من أساليب الانتاج الصناعى على أنه المفتاح السحرى لتحقيق الوفرة الاقتصادية لكل انسان · ومن ثم فان كل القيم الأخرى ترغم على الانحراف فى هذا الاتجاه ، أو على الخروج من المسرح ، أو الوقوف على جانبيه · فى مثل هذا الموقف لايكون للمتدينين مفر من أن يتصدوا للاحتجاج على مادية العصر · كما أن المتمسكين بولائهم للعقائد العسكرية والوطنية ذات المجد التليد يأسفون أشد الأسف لتلك الروح الدولية المتغلغلة فى الأمم المتحدة ، التى تتخذ لنفسها من تحقيق السلام والأمن هدفا · أما ولاء هذه المنظمة لتلك الأهداف فلاينشأ عن الاقتناع بأن الحرب خطيئة أوبأن الحماسة الوطنية شر فى ذاتها ، ولاحتى بأن كلتيهما منفرة من الوجهة الجمالية ، بل ينشأ عن الاقتناع بأنه بدون السلام يكون الاستقرار والأمن المادى ، الذى تعده أساسا لكل نوع آخر من الأمن ، مستحيلا بالنسبة الى العالم فى مجموعه · وهكذا يشتد الحرص على كفاية السلع المادية وتوافرها ، ويعم الفرح اثر كل نبأ يعلن وجود كميات لاحد لها من الطاقة الذرية أو غيرها فى الأرض أو البحر أو الجو · ومن جهة أخرى نشعر بقلق حين نسمع مثلا أن نحاس العالم سوف يستهلك خلال عقد من الزمان لو ظل كل بلد يستخدمه بالمعدل الذى يستخدم به فى الولايات المتحدة ، فلنتصور الآن مقدار عدم الاكتراث الذى كان يمكن أن يبديه قديس فى العصر الوسيط ازاء النبأ القائل ان حصيلتنا من النحاس قد تنفد قريبا ، كذلك فان المتحمس للوطنية والعسكرية لن يشعر بالقلق الا اذا أعتقد أن قوات بلاده المسلحة لم تكن لديها كمية تكفى لكى تظل باقية الى الأبد ، أو أنه ليس من الممكن الاستعاضة عنها ببديل آخر ·

أما صاحب النزعة الدولية فانه يرتاع اذا نظرالى النحاس على أنه عنصرضرورى فى الجهاز الذى يزود العالم كله بالرخاء المادى ، أو اذا أدرك أن نقصه سيؤدى الى العودة بنا الىعصر من العوز والحاجة مرة أخرى ·

وعلى الرغم من أن المؤيدين المتحمسين للقيم التى كانت فى وقت من الأوقات هى العليا كالقيم الدينية لا يعلقون آمالا كبيرة على استعادة النمط الذى كان سائدا فى العصور الوسطى ، فانهم يتحمسون لانتشار النزعة المادية ، أى الاهتمام الطاغى بالرخاء المادى · ويبدو أن الدين قد أصبح على وجه العموم قانعا بأن يحتل مكان عنصر واحد من عناصر القيم ، بدلا من أن يحتل المكانة الأولى ، وان كانت كنيسة روما على غير استعداد للاكتفاء بذلك · وقد ينتهى الأمر بالدين الى أن يعنى اما شيئا يوجه عقيدتنا الدينية المتعلقة بالقيم المادية وغيرها من القيم العليا ، بحيث لا يحض على الاخاء وحده ، بل يحض بوجه خاص على عدم الأنانية فى استهلاك السلع ، واما أن يعنى ، من وجهة النظر الدنيوية مجرد الولاء لأمل روحى خاص معين · أما بقايا

النزعات الوطنية ، اذا جازت تسميتها بهذا الاسم ، وهى الاطلنطية ، والآسيوية ، فاما أنها سيبيد بعضها بعضا ، وبذلك قد تقضى ، لا على الرخاء المادى فحسب ، بل على الانسان نفسه ، واما أن تتحول الى أنواع من الحماسة الاقليمية المقبولة المتسامحة ٠ والواقع أن هذه النزعات الوطنية هى من بين العقبات القليلة الباقية فى وجه السيادة العليا لعقيدة الرخاء المادى الشامل ٠ وانه لمن المشكوك فيه ألا يكون معظم الناس متفقين مع الكلمة المشهورة التى قالها تشارلس ولسن ، وزير الدفاع الأمريكى السابق، وهى أن ما هو خير لشركة جنرال موتورز خير للبلد كله ٠ اذ أن جنرال موتورز هى بالنسبة لهم رمز للأداة التى تكفل الوفرة ٠ أما خصـــومه فيمكن أن يشتملوا على مدرستين فكريتين مختلفتين : الشكاك الذين يرتابون فى أن تكون جنرال موتورز حريصة بحق على رخاء الانسان المادى ، وخصوم المادية الذين يعتقدون ، مع الأسف ، أنها حريصة فعلا على هذا الرخاء ٠

وهكذا فاننا نعيش فى عصر أصبح من الواضح فيه أن الاعتبارات المادية هى الحاسمة ٠ ولو قدر لنا أن نشهد فى أى وقت شيئا مشابها لتدين العبرانيين القدماء أو الايرلنديـين أو « للروح الشعبية » التيوتونية ، فالأرجح أن ذلك سيكون خارج المناطق التى تضطلع فى أيامنا هذه بالأدوار الحاسمة ٠ وستكون مثل هذه القيم مساعدة لقيم أخرى ، أو ربما قدمت بوصفها بديلا عنها ، مثلما يحبذ البعض حلول الدين محل التحليل النفسى ٠ أما الولاء للروح الذى أدى بالقديســين الى تفســير الأمر الالهى القائل : « بع مالديك وأقبل واتبعنى » بأنه أمر يدعـــو المرء الى أن يحيا حيـــاة الحاجة والحرمان ، ويدعو الباقين جميعا الى أن يفعلـــوا هذا ، فانه لايبـــدو فى نظرنا اليوم أقل من مقاطعـة وتخريب للنظـام الاقتصادى « القائم » ، مالم يقتصر تأثيره على أقلية ضئيلة ٠ ولقد كان الضباط العسكريون فى الماضى ينظرون فى كثير من الأحيان بعين الارتياب الشديد الى جشع الانسان الذى ينصب اهتمامه على الاقتصاد وحده ٠ فالضابط البروسى كان فى أيام مجده ينظر اليه باحتقار ٠ ولـكن لو قـــام العمال بتفسير مختلف أنواع التنديد بالنزعة المـادية تفسـيرا حرفيا ، وخرجوا الى الحقول وضياء الشمس كما يخرج الصغار فى « حملة الأطفال الصليبية » ، أفـكان يمكن احتمال ذلك طويلا ؟

ان المستقبل المبشر بالأمل فى عقيدة الرخاء المادى يكمن فى احتمال استخلاص طاقة غير محدودة من داخل الذرة ٠ صحيح أن أول استخدام للذرة ، شأنها فى ذلك شأن البارود ، كان استخداما عسكريا للدفاع عن مصالح وطنية ٠ ولكن كل شخص يعلم أن الديناميت يمكنه أيضا ازاحة الجبل من أجل شق طرق واسعة سريعة ، وأن الطاقة الذرية لن تظل ملكا لهيئات أركان الحرب ٠

ولقد علت بالفعل أصوات كثيرة تحذرنا من النتائج الاجتماعية فضـــلا عن الاقتصادية لهذا التحول ، الذى سيصبح فيه الفحم والزيت ، من حيث هما وقود ، من النفايات ، وكأنهما روث البهائم ، فالنظام الاقتصادى ، وفقا لتركيبه الحالى ،

يقتضي توظيف نسبة كبيرة من السكان فى الانتاج • ولقد كان هؤلاء السـكان فى العصور الماضية يقبلون الكدح الجسمى بوصفه نتيجة لخطيئة آدم ، أو يقبلونه بوصفهم قطيعا يمتلكه الأشراف امتلاكا شرعيا فحسب • أما الآن فهم يقبلونه على أنه أبسط وسائل تحقيق الأمان المادى • ولكن هب أن هذا الأمان يبدو ممكنا ، أو هو بالفعل ممكن ، بمجهود بسيط ، أو بلا مجهود ، حيث لن يحرث آدم ولن تغزل حواء ، وسيكون كل شخص مع ذلك من الأشراف ؟ ان هذه لم تعد أحلاما ، وانما هى الامكانات الملموسة للقرون المقبلة • وحتى على الرغم من أن المشكلات الكبرى فى العالم تبدو فى الوقت الحالى عسكرية وسياسية (والواقع أن عدد المشكلات ذات الطابع السياسى البحت هو ، فى نهاية المطاف ، عدد ضئيل) فان تسوية هذه المشكلات بالحرب أو بالدبلوماسية مستحيل مالم تواجه تلك المشكلات الأشـد خطرا ، والتى تكمن من ورائها ، وهى مشكلات اقتصادية بحتة ، أعنى أنها مشكلات تتعلق بكيفية توزيع سلع العالم على نحو من شأنه أن يمنع الحاجة الاقتصادية من التحول الى أزمة سياسية • ولكن على الرغم من الاضطرابات الشديدة التى لامفر منها فى النظام الاقتصادى فان هذه المشاكل الأخيرة قابلة للحل ، واذا تم حلها فماذا يحدث بعد ذلك ؟

أول ما نلاحظه ، فى محاولتنا أن نجيب عن هذا السؤال ، أن هناك قيما أخرى غير تلك التى كنا نتحدث عنها حتى الآن ، لم تكن فى أى وقت هى العليا على نطاق عالمى شامل ، وأعنى بها المعرفة والاستمتاع الجمالى • وهناك بعض الأمور التى نستطيع أن ندرك أنها حتمية بالنسبة الى واحدة على الأقل من هذه القيم •

لقد كان من الشائع وقتا ما الكلام عن « موت الفن » ، على أن اعلان موت الفن لم يكن سابقا لأوانه فحسب ، بل ان القيمة الجمالية بسبيلها الآن الى السيادة بوصفها القيمة العليا ، لأول مرة فى التاريخ ، والواقع أن الكفاية الاقتصادية كانت دائما فى الماضى هى الشرط الضرورى ، وان لم تكن الشرط الكافى ، لازدهار القيمة الجمالية ، وكما رأينا من قبل فقد اقترب الوقت الذى لن يكون فيه الأمان والاستقرار الاقتصادى مجرد امكان ، بل سيصبح ذلك شيئا مرجحا ، مالم تحدث حرب شاملة تنهار معها الحضارة • ولما كان من الضرورى أن يتجسد الفن فى عالم الظواهر ــ وهذا أمر ضرورى له أكثر مما هو ضرورى لبقية القيم غير الملموسة ــ فان القيم الجمالية هى التى تقترن بطبيعتها بالقيم المادية والاقتصادية • فلابد أن تظهر فى النهاية قيم تبرر وجود الانسان بعد أن يكون قد أشبع كل حاجاته المادية الأساسية • والواقع أن الصيغة الحديثة للقضية القائلة « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » ترجع الى عهد ماثيو أرنولد على الأقل • فاذا ما رفضت القيم الدينية الأكثر ضيقا أن تحتل هذه المكانة فهل هناك قيمة أخرى غير القيمة الجمالية يمكنها أن تحل محلها فى مجتمع مشبع من الوجهة الاقتصـادية ؟

ان مشكلة وقت الفراغ قد أصبحت الآن مشكلة مألوفة ، ولكنها ليست مشكلة بالية على الاطلاق • فقد يتبين أن الفراغ ، الذى هو شرط كل استمتاع جمالى ، هو

أفدح مشكلات الانسان قاطبة • والواقع أن الفراغ مشكلة يتفق عليها الانسان ، حتى في الوقت الحالي ، مبالغ باهظة من المال • فمنذ نهاية الحرب العالمية الأولى شهدنا نموا هائلا لعدد كبير من الظواهر الجمالية وشبه الجمالية ، والظواهر التي تزعم أنها جمالية• ففي العصور السابقة على الثورة الصناعية كان التعبير الجمالي بالنسبة للانســـان العادي يتمثل في الصنائع اليدوية ، وفي العبادة الدينية ، والاستعراضات العسكرية، وما شابه ذلك ، ولكنه لم يكن يتمثل في المباريات والرياضة على نطاق شامل الا نادرا• على أن القرن التاسع عشر شهد ظهور نوع منخفض المستوى من الألعاب والفنون وأنواع الترفيه ، في مقابل الأنواع الأرفع منها • وأصبح لدينا عندئذ صالات الموســـيقى الراقصة والفودفيل ، والكتاب الرخيص ، والمباريات التي يقبل عليها الجمهور في كل البلاد الغربية • وفي العقد الثالث من هذا القرن شهدنا انتشار الراديو والرياضة على نطاق هائل الضخامة ، وخاصة في الولايات المتحدة • والواقع أن أي مواطن كان يعيش في أي عصر آخر خليق بأن يدهش حين يرى الصحيفة الأمريكية العادية تكرس للرياضة مساحة تزيد — اذا قيست بالبوصات — عما تكرسه لأي موضوع ثابت آخر تقريبا • وسوف يصعب عليه أن يصدق أن ما كان من قبل مجرد نزهة على ظهر الخيول في مروج القرية قد اتخذ الآن هذه الأبعاد الضخمة • وبالمثل فان راوية القصص أو مؤلف الموسيقى في العصر الرومانتيكي لابد أن يدهش للتطور الذي لحق فنه في الكتاب الرخيص ، والمجلة ، والراديو ، والتلفزيون •

ولا شك أن أسهل الأمور على المرء هو أن ينفض يديه عن هذا كله • ولكن هل هذا ممكن ؟ اننا نرى بأنفسنا أن بعض الفنون لم تعرف في تاريخها ما عرفته في أيامنا هذه من انتشار واقبال ، سواء نظرنا الى هذا الانتشار والاقبال على أنهما خير أو نظرنا اليهما على أنهما شر • فهناك وقت وجهد هائلان يكرسان لاستغلال ذلك الفراغ الذي هو نتيجة حتمية مصاحبة للسعي الناجح وراء الرخاء المادي في عصرنا • واذا كانت الألعاب والفنون قد شغلت منذ أقدم العصور وقت الفراغ لدى الأقلية فان ما تشهده في أيامنا هذه انما هو ترديد لهذا على أوسع نطاق ممكن بالنسبة للانسان العادي •

ومن المؤكد أن الألعاب ليست هي الفنون الجميلة بأي معنى معترف به ، ولكنها على الأقل قريبة منها قرابة وثيقة • وربما كان موقعها في مكان ما بين الفنون الحربية التي تحدثنا عنها من قبل والفنون الجميلة ، ولكن الأمر المؤكد هو أنها مسائل متعلقة بوقت الفراغ ، على حين أن الحرب لم تكن كذلك قط ، حتى عندما كانت أمجاد عصر الفروسية في أوجها • كذلك لايمكننا أن نعترض باتخاذ موقف الترفع الذي يتخذه الذواقة الخبير ، فنقول ان هذا كله لا شأن له بالفن مفهوما بمعنى خاص رفيع • فلوصح هذا النقد لكان من حق المرء أن يعترض ، بالمثل ، على اشتراك الســـواد الأعظم من المجتمع ، بطريقة سطحية ، في العبادة الدينية في العصور الوسطى ، والواقع أننا انما نكتفي باغماض أعيننا عن ضخامة المشكلات الجمالية في عصرنا واتساع نطاقها اذا اقتصرنا على تعريفها من خلال أرفع مظاهر الجهد الخلاق • أما كيفية المحافظة على هذا

الجهد الرفيع المستوى ، وتمييزه ، والعلو به ، فسوف تكون تلك ، أو ينبغى أن تكون ، هى المشـــكلة التى يتعين أن يواجهها أولئك الذين يعملون على توجيه الجهـــد الجمالى ككل ٠

وعلى ذلك يمكننا القول ان المشكلات الجمالية هى بالفعل من المشكلات الكبرى فى عصرنا الحاضر ٠ فعندما تصبح المشكلات الاقتصادية قابلة كلها للحل فان المشكلات الكبرى تصبح حتما مشكلات جمالية أو مشكلات قريبة منها قرابة وثيقة ٠ وهذا فان هذه المشكلات ستصبح مشكلات سياسية ، على الرغم مما يبدو فى هذا القول من غرابة ٠ ذلك لأنه لاتكاد توجد قيم أخرى تستطيع الاضطلاع بهذا الدور ، مالم يحدث احياء للقيم العليا والمشكلات الأقدم عهدا ٠

على أن هذا كله يبدو كما لو كان ينتمى الى المستقبل البعيد ٠ وهذا بالفعل هو الخليق بأن يحدث لو أن ازدياد الاهتمام الجمالى قد انتظر حتى يتم حل آخـــر الصعوبات الاقتصادية ٠ ولكن المشكلات الجمالية ، أو الجمالية السياسية ، تظهر ــ كما لاحظنا من قبل ــ بمجرد أن يصبح الرخاء الاقتصادى هو الشاغل الأول للمجتمع ٠ وتصبح المشكلات الجمالية السياسية هى السائدة من حولنا بمجرد أن يحتج الجمهور الذى يرعى العروض الجمالية المقدمة اليه ، بصورة أو بأخرى ، قائلا انه يريد شيئا آخر ٠ فاذا ما أخذت هذه المشاكل مأخذ الجد ، ألا يمكن أن تؤدى الى قيام الحكومات وسقوطها ؟ ان عصرا كهذا سيكون بالنسبة الى المفكر النظرى الجمالى أشبه بالوضع الراهن بالنسبة للمفكر النظرى الاقتصادى والاجتماعى الذى يطلب اليه الجميع فى الوقت الحالى أن يقدم المشورة فى حل تلك المشكلات الاقتصادية والاجتماعية التى لايمكن الاكتفاء بتركها لمشيئة الناخبين المتقلبة ٠ وعندما كان الدين هو الذى يحتل المكانة العليا كان الجميع يطلبون الى رجل اللاهوت المساعدة على حل مشكلات كانت دينية حقا ، ولكنها كانت مع ذلك مشكلات دينية سياسية تهز الدنيا هزا : كمشكلة أولوية العقل أو النقل ، والحضور الحق ، وتعاقب الرسل ، والتفويض الالهى ، والخلاص بالأعمال ، وما الى ذلك ٠ ولا شك أنه لو كان أى رومانى يعيش فى القرن الأول الميلادى قد تنبأ بأن مشكلات المستقبل ستكون من هذا النوع الدينى السياسى لظنه الناس مخبولا ، والواقع أن لنا الحق فى تأكيد التوازى بين تلك الحالة والموقف الراهن ٠ فأوجه النشاط الجمالية ، مهما اختلفت أنواعها ، قد أصبحت لها أهمية عظمى فى الوقت الراهن ، حتى لو كان رأينا هو أنها فى حالة يرثى لها ٠ وهذا موقف تكمن فيه بذور أزمة ، وهو أيضا موقف لم يتأهب المفكرون الجماليون حتى الآن لتقديم النصح بشأنه ٠ ولكن سيكون من الضرورى التماس المشورة لديهم عاجلا أو آجلا ٠ وستكون النتيجة هى سيطرة الاعتبارات الجمالية على شؤون الدولة ، سواء كانت هذه السيطرة خيرا أو شرا ، مثلما كانت الاعتبارات الدينية هى المسيطرة فى الماضى ، ومثلما تسيطر عليها الاعتبارات الاقتصادية فى الحاضر والمستقبل ٠

ان مهمة كالفن ينبغى أن تقدم على الأقل ترويحا للنفس من الملل • أما فى أحسن حالاتها فانها تستطيع أن تقدم وسيلة لملء العالم المدرك ، عالم الزمان والمكان والخيال،

بطريقة تجمع بين الثراء والعمق • ولقد كشف الفنانون حتى الآن ، فى أحيان معينة على الأقل ، عن موارد لاحد لها من أجل تلبية هذه الحاجة • ولكن حتى هذه الموارد يمكن أن تنفد • ففى الوقت الراهن نجد أن الموضوعات التى طرقها الأساطين القدماء وأساليبهم تعاد صياغتها بلا انقطاع فى الموسيقى والأدب السائدين فى صناعة الترويح عن الناس • فالفن فى هذه الحالة فن جماهيرى ، يكاد انتاجه يكون جماهيريا ، وأى محاولة للتعبير عن الاستياء والنفور فى هذا الصدد لاتمس لب الموضوع • فالمسألة هى كيف يمكن الاحتفاظ ، خلال المستقبل الممتد الى غير حد ، بأى شىء يضارع فى مستواه أعمال هؤلاء الأساطين القدماء • على أننا لانملك صورة للفنان العظيم الا على أنه فريق مؤلف من رجل واحد ، يسيطر شخصيا سـيطرة كاملة على المادة التى يشكلها • ولو كان الأمر متعلقا بأى شىء آخر سوى الفن ، أى لو كان متعلقا بأدوات نافعة مثلا ، لأمكننا القول بأن تضافر الجهود على نحو مشابه لما كان متبعا فى تحصيل المعرفة المتعلقة بالعالم الطبيعى فى القرن الماضى كفيل بأن يجعل جميع انجازاتنا الجمالية حتى الآن تبدو ، على ضخامتها ، فى بداية انجازات أرسطو وليبنتز فى ميدان العلم • ولكن الواقع اننا لانعرف أى قدر من المستوى الرفيع يمكن أن يظل باقيا اذا ما أصبحت الأعمال الجمالية تنتج بالجملة ، الا من خلال معامل السينما وصناعات التلفزيون • ومن الممكن أن تظل هذه الأعمال باقية على مستوى رفيع الى أبعد حد •

لقد كانت العصور القديمة تعزو المعرفة أو الحكمة المتعلقة بالطبيعة الى وحى خفى غيبى • واليوم حل فريق الباحثين فى المعمل محل الحكيم أو صاحب البصيرة الذى يتميز بعبقرية الهية • ولكن الفن ما زال يعد ، الى حد بعيد ، نتاجا لعبقرية غيبية • ولا شك أنهذهالفكرة بدورها ستختفى اذا استطاعت الجماليات أن تحدث فى مجالها تحولا مشابها لذلك الذى حدث فى العلم فى القرن السابع عشر • ولقد كان « كانت » هو الذى لاحظ — على الرغم من أنه كان يضع « نيوتن الذى لايبارى » نصب عينيه — أنه لايوجد ولا يمكن أن يوجد شىء اسمه العبقرى فى العلم • فالعبقرية وقف على الفنون ، التى لايمكنها أن تسير فى طريقها بواسطة « وصفة » أو قاعدة أو حجة عقلية • وسواء كان « كانت » قد أصاب أو أخطأ فان المسألة التى تواجهنا هى هـل نتمكن من الاستغناء عن العبقرية حتى فى الفن ، ويظل لدينا مع ذلك فن • وربما يتبين فى المستقبل أن الاجابة عن هذا السؤال مشابهة لما وجدناه فى مجال الدين ، أعنى أنه ستوجد مستويات متباينة أشد التباين ، تتفاوت بين العبقرية والدجل •

وهكذا ينبغى أن يكون من المسلم به أن سيادة الجماليات فى المستقبل لن تأتى لنا أبدا بيوتوبيا جمالية • وهنا تخطر فى الذهن حالة أخرى مشابهة • فقد أعرب جيبون فى تاريخه ، وكذلك هيجل فى ملاحظاته المبكرة عن المسـيحية ، عن الرأى

القائل بأن وصول المسيحية الى السيطرة السياسية والتنظيمية فى العالم القديم لم يؤد الى زيادة كمالها ، بل أدى الى افســـادها ، فاذا حدثت نتيجة مماثلة للجماليات فان مستواها وطابعها قد ينحط الى حد مؤسف ، وان كان العكس يظل ممكنا تماما . فالمجتمع الذى تسوده الاعتبارات الجمالية يمكن بلاشك أن تنمو فيه كل ظواهر الشقاق والنزاع التى ظهرت فى الثقافة المتجهة صوب القيم الدينية أو غيرها من القيم . كذلك فان الحساسية التى لابد منها من أجل تذوق الفن تذوقا أصيلا يمكن أن تزيف كما زيفت الحساسية الدينية . والواقع أن من الممكن أن نجد أنفسنا ازاء نوع من الانتماء الشكلى الجاف لقضية جمالية معينة ، كانت هناك هيئة كنســية محكمة التنظيم فى مقابل النزعة العاطفية الشخصية الحارة فى مذهب القنوت Pietism ومذهب المنهجين Metodism . وهكذا فان المستقبل المتوقع لن يكون ورديا بالضرورة وانما هو مستقبل يقتضى أعلى قدر من الفهم الجمالى . ولكن الأمانة الفكرية تمنعنا من القول بأن هذا الفهم يتمثل فى وسائل الاعلام العامة التى تعمل على توصيل الانتاج الجمالى وابداعه فى أيامنا هذه .

الكاتب : كارل آشنبرينر

ولد فى كانساس بالولايات المتحدة عام ١٩١١ ، وحصل على شهادته الجامعية الاولى من كلية ريد عام ١٩٣٤ ، ثم قام بدراسات عليا فى الفلسفة وعلم الجمال وعلم النفس فى جامعة كاليفورنيا فى بركلى . وحصل على دكتوراه الفلسفة عام ١٩٤٠ . عين مدرسا فى كلية ريد من ١٩٤٠ الى ١٩٤٦ ، وبعد الحرب قام بتدريس الفلسفة فى جامعة كاليفورنيا ، وتقلب فى مناصب التدريس المختلفة ثم أصبح استاذا ورئيسا للقســم من ١٩٦٠ الى ١٩٦٣ . وحصل على زمالة جوجنهايم (١٩٥٦ / ١٩٥٧) وفولبرايت (١٩٦٣/١٩٦٤) للدراســة علم الجمـال فى أوربا . وفى عام ١٩٦٤/١٩٦٥ شغل منصب رئيس قسم التصميم بالنيابة فى جامعة بركلى .

المترجم : د. فؤاد حسن زكريا

أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة عين شمس . وهو رئيس تحرير مجلة « الفكر المعاصر » . وله مؤلفات ومترجمــات عديدة



بقلم
بوريس كوزنيتسوف

ترجمة
سمار جبران

المقــال فى كلمات

ماهى العقلانية ؟ انها المذهب العقلى الذى لايقر الا ما يطابق العقل الحر الطليق، وهى النزعة التى أعلنت سيادة العقل البشرى وقدرته المطلقة ، وكان ليوناردو دافنتشى الفنان العالم (١٤٥٢ ـ ١٥١٩) من أوائل الرواد العظماء لهذه النزعة • كان الموضوع الذى شغل الأذهان فى ميلاد العلم الكلاسيكى هو البحث فى التناسب الموضــوعى ، والتناسق والنظام الموضوعيين فى الكون ، بحثا عقليا منطقيا • كان الطــريق الذى سلكه ليوناردو بحثا عن هذا التناسب هو علم تجريد الكون من التعريفات الكيفية كما تفعل الهندسة والحساب • انه كان أيضا يعنى بالكيف الذى يتمثل فيه جمال الطبيعة وجلال الكون • وكان أول من وجد المعايير الجمالية مع المعايير المعرفية ، ومزج الفن والتكنولوجيا فى اعماله ، وكانت فكرته التى سبق بها غيره هى ان الارتباط بين الحدث الفردى والكلى هو معيــار الوجود الفيزيائى ، وكان التصــوير عنده ضربــا من الفلسفة ، ويتميز على الشعر بقدرته على رسم الأشياء والأحداث التى توجد معا فى مكان ما • ولذلك فان الفرق بين عقلانية ليوناردو وعقلانية ديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) أن عقلانية ليوناردو تصويرية ، اما عقلانية ديكارت فانها كمية رياضية • والرياضة عند ليوناردو ليست تأملا فى العالم الذى يعلو على الحس ، بل هى بحث عن الاطار الهندسى للواقع • وكان الأسلوب الغالب على ليوناردو هو البحث عن المعرفة من خلال

الآلية ، ومن خلال التاليف التركيبى ، وتدل على هذا عبارته المشهورة ((الميكانيكا جنة العلوم الرياضية)) •

ان التصور الأساسى فى العلم الكلاسيكى هو التمثيل التفاضلى للحركة • فالعلم الكلاسيكى يدرس الحركة بين نقطتين أو بين لحظتين من الزمن • أما الفيزياء الأرسطية فمبنية على افتراض ترتيب استاتيكى ساكن للمواضع الطبيعية • وهى لاتنظر الى الحركة الا من حيث نقط نهايتها • ونظريتها فى الحركة لاتأخذ فى اعتبارها المواضع النسبية للأجسام المتحركة عند كل نقطة وسيطة فى مسارها • ومن جهة أخـــرى فان العلم الكلاسيكى يتناول المواضع النسبية اللحظية ، التى لا تتغير فى الحالة الخاصة لجسم منفرد لا تأثير عليه ، وأما فى الحالة العامة فالتأثير المتبادل بين الأجسام يتمثل فى العجلة التى تتناسب مع القوة المؤثرة • وهكذا فالتصورات الأســـاسية لدى العلم الكلاسيكى هى العلاقات النهائية بين المسافة المقطوعة والزمن المستغرق ، وبين السرعة والزمن ، وهذه تفقد معناها فى غياب تصور متكامل عن الأجسام المتحركة • ولقد ظهر العلم الكلاسيكى عندما أصبح التفاضلى للحركة نسقا من القوانين التفاضلية ، ووجد صياغته الرياضية الرئيسية فى حساب اللامتناهيات • ولقد كان يوجد من قبل تصور مبهم غير مكتمل لحادث موضعى متفرد ، أو حالة أو علاقة موضعية متفردة ، يمكن أن تخضع للتحليل العلمى الى القدر الذى تكون به مشروطة بما يسبقها من علاقات أوحالات أو أحداث ، وتكون هى نفسها متحكمة فيما يعقبها منها • ولم يكن هذا التصور قــد جرى ربطه بعد بدراسة الحركة ، بل كان أحيانا يطبق فى مجالات شديدة البعد عن الميكانيكا ، فى حين كان فى أحيان أخـــرى يقترب كثيرا من الفيزياء والميكانيـــكا والرياضيات ، أى من أفكار العلم الكلاسيكى • وأقول انه اقترب كثيرا ، لكنه لم يكن قد دخل بعد ضمن تلك الأفكار ، كان هذا هو فجر العلم الكلاسيكى •

وكان هذا أيضا هو فجر العقلانية الكلاسيكية التى أعلنت سيادة العقل البشرى وقدرته المطلقة • كانت النزعات العقلانية خلال عصر النهضة سمة لعديد من الحركات الفلسفية التى افترق بعضها عن بعض كثيرا من حيث مضمونها ، وأصولها ، وتطورها اللاحق • على أن هناك فكرة مشتركة يمكن تمييزها فى هذا الصدد ، يجوز أن نطلق عليها اسم النزعة العقلانية ، أو فجر العقلانية الكلاســـيكية ، أو حتى عقلانية عصر النهضة • فالمسالة هى أن عقلانية القرن السابع عشر الكلاسيكية توجد تحت اسم واحد بعض التصورات الشديدة الاختلاف فيما بينها ، والتى تصل الى حد التعارض من وجوه عدة • فعقلانية ((سبينوزا)) تختلف عن عقلانية ((ديكارت)) الى حد يزيد عن اختلاف أى منهما عن الأفكار العقلية لعصر النهضة • وهذا ما يبيح لنا التوســـع فى لفظة ((عقلانية)) بحيث تنسحب على أفكار ليوناردو دافنتشى •

ان البحث عن تناسب موضوعى ، وانسجام ونظام موضوعيين ، ومنشأ للكون ، وعن ذلك الذى يحيل العماء الى كون منظم ، كان يلعب دورا عظيم الشأن فى ميلاد العلم الكلاسيكى • فالتفكير البشرى كان يوجه لنفسه دائما ذلك السؤال الذى عبر عنه « أينشتاين » بوضوح شديد حين قال : « ان أكثر ما يستغلق على الفهم عن الكون هو قابليته للفهم » •

فلماذا هو قابل للفهم ، ولماذا هو يخضع للتحليل المنطقى ؟ هذا السؤال بعينه هو الذى قاد التفكير العلمى بعيدا عن العالم التجريبى للوقائع المتفردة وعن العالم القبلى للتجريدات اللامادية • وعلى هذا الطريق تصير العقلانية علما • أما فى الحقبة التى تعنينا فهى تصبح علما كلاسيكيا • وأما العقلانية التى تبحث عن معقولية موضوعية فى الكون ، والتى تفسر لنا السبب فى أن العالم ينفتح أمام المعرفة العقلية والمنطقية ، والسبب فى أن « الله بارع لكنه ليس ماكرا » (حسب تعبير آخر لأينشتاين) ، هذه العقلانية أصبحت متضمنة فى التصور التفاضلى للحركة • وعلى ذلك فان من أشد الأسئلة أهمية بالنسبة لنشأة العلم الكلاسيكى ، ولو أنه سؤال خاص ، هو : ما السبب فى أن الكون يخضع للتفكير الرياضى ؟

فى القرن السادس عشر رأى « جوردانو برونو » فى الجزئى انعكاسا للعام ، انعكاسا للروح اللانهائية للكون • والجزئى يصبح لامتناهيا فى الصغر عندما يضاهى بالكلى اللامتناهى فى العظم ، ولكن الجزئى لايختفى بل يحتفظ بما فيه من واقعية ، بل ان واقعيته تزداد لكونه معبرا عن الطبيعة اللانهائية أى عن « العقل » الكامن فيها، وعن « روحها » (ونحن هنا نحمل معنى جديدا على لفظ قديم) ، فالجزئى يكتسب واقعية أن يصبح عنصرا فى عملية منظمة ، اذ ان الوجود الموضعى حقيقى لأنه يتميز بعدد لانهائى من تطبيقات القانون الكونى ، وهذا القانون يكتسب معنى ماديا عندما يتحقق فى علاقات موضعية لامتناهية فى الصغر ، أى عندما يصبح قانونا تفاضليا •

هذا هو آخر طريق سلكه القرن السابع عشر من أجل فهم « التناسب «Ratio وهو طريق مكافىء لذلك الذى سار فيه برونو فى القرن السادس عشر •

فماذا كانت مقدماته ؟.وما هو السبيل الذى اتخذه ليوناردو بحثا عن التناسب فى القرن الخامس عشر ؟

يقول « بول فاليرى » فى مقاله الرائع « ليوناردو دافنتشى والفلاسفة » (١٩٢٩): ان المفهوم المحلى الصرف لمعايير العلم يقف مضادا للجمال ، الذى يستقل عن الزمان والمكان والمعايير المحلية (١) • ولقد انتقل هذا المعيار الجمالى الى العلم ، فأصبح ثبات

---

(١) بول فاليرى ، « ليوناردو دافنتشى والفلاسفة » ، مقالات مختلفة عن ليوناردو دافينتشى ، باريس ١٩٣٨ ، ص ١٢٧ — ٢١٨ •

الجمال هو ثبات الحقيقة وثبات القوانين العامة · والجمال عند ليوناردو قوامه امتداد الفرد وتطوره الى نطاق الكلى ، وهو نمو مكانى وزمانى · بل ان الأقرب الى فكر ليوناردو أنه رأى فى هذا النمو المكانى الزمانى للفرد شيئا مشتركا بين الفن والعلم ·

ان فيزياء ليوناردو هى فيزياء كيفية ، فهى لاتجرد الكون من التعريفات الكيفية كما تفعل الهندسة والحساب اللذان « يقفان عند حد معرفة المقادير المتصلة والمنفصلة، وليسا معنيين بالكيف الذى ينحصر فيه جمال أعمال الطبيعة وجلال الكون » (١) ·

وكان تقويم الرياضة وثيق الرباط بالطابع المميز للنزعة العقلانية · ذلك لأن النزعة العقلية القبلية كانت قد أدت الى تصور الرياضة على أنها إطار يعلو على الحس ويسبق الوجود المادى · أما النزعة العقلانية التى أدت الى العلم الكلاسيكى فقد رأت فى الوجود المادى وفى حركة الجسيمات نموذجا أصليا حقيقيا للتحليل الرياضى · ولقد كان ليوناردو من ممثلى تلك النزعة التى كانت ترنو الى المستقبل، والى العلم الكلاسيكى، والتصور التفاضلى للحركة · فالرياضة عند ليوناردو ، فيما يقول «ج·دى سانتيانا»، « ليست تأملا فى العالم الذى يعلو على الحس ، بل هى بحث عن الاطار الهندسى للواقع » ·

ترى ماهى الصلة بين فيزياء ليوناردو وفيزياء ديكارت ؟ يقول بول فاليرى عن كلمات ليوناردو : « الميكانيكا هى جنة العلوم الرياضية » ، انها تعبر عن فكر ديكارتى صرف · وفى رأى فاليرى أن ليوناردو يعبر عن فكرة الحيوانات الآلية بطريقة أكثر جلاء ووضوحا من ديكارت : « فالبحث عن المعرفة من خلال الآلية ومن خلال التأليف التركيبى كان غلابا عند ليوناردو » (٢) · والواقع أن ليوناردو يرتبط بالفعل مع ديكارت بروابط تعاقب مباشرة ، ولكن هذا ليس مبعث تشابههما فحسب ، بل هو كذلك مبعث اختلافهما أيضا ، لأن التعاقب هنا أمر تاريخى ، وكل من المفكرين يحتفظ بفردانيته التاريخية · فعقلانية ليوناردو ، التى كانت أسبق عهدا ، بما يصحبها من نزعة حسية ، تؤدى الى تفسير ميكانيكى ، لكن هذه الميكانيكا ليست الميكانيكا الديكارتية الهندسية المتعلقة بأجسام متجانسة لايمكن تمييزها عن مواضعها المكانية ، وانما هى ميكانيكا أجسام متباينة ذات فروق كيفية ·

وهكذا ، فان تصوير ليوناردو عندما ينقلب الى : ميكانيكا ، وفيزياء ، وفلسفة ، وعندما يصبح معرفة بالكون وبما فيه من تناسب ، لايكف مع ذلك عن أن يكون تصويرا· « ان ليوناردو مصور : بل أقول ان التصوير هو فلسفته ··· فهو يعتبره الهدف الأسمى لجهود عقل كلى شامل » (٣) ·

---

(١) بحث فى الرسم ، ١٧

(٢) « ج· دى سانتيانا ، « ليوناردو والذين لم يقرأ لهم » ، ليوناردو دافينشى والتجربة العلمية فى القرن السادس عشر ، باريس ١٩٥٣ ، ص (٤٤) ·

(٣) مقالات مختلفة ، ص ١٥٢ ــ ١٥٣ ·

ان محاولة ليوناردو لرؤية كلية الوجود المتعددة الألوان مع الاحتفاظ بكل مالها من صفات كيفية أدت بكثير من الناس الى تشبيه نظرته للعالم بنظرة « جوته » له . فقد قال « كاسيرر » : « ان حدود الرؤية » بالنسبة لليوناردو ، كما هي بالنسبة لجوته، هي حدود الانجاز،وهكذا فان العالم الذى يستطيع استيعابه بوصفه فنانا وباحثا هو دائما علم الأبصار ، ولكن هذا العالم لابد أن يمثل أمامه ، لاكظاهرة منقسمة مجزأة، بل بكل مافيه من امتلاء منظم » (١) .

لكن هل حقا كانت حدود الرؤية هى حدود الانجاز عند ليوناردو ؟ انها بالتأكيد لم تكن حدودا بالقدر الذى كانت به عند جوته ، ذلك لأن الأسـاليب الميكانيكية والرياضية لمعرفة الطبيعة كانت متضمنة فى انجاز ليوناردو (٢) . فنزعة الرؤيـة Visibilism عـند جوته هى احتجـاج على عمومية المعرفة الميكانيكية والرياضية ، على حين أن هذه النزعة عند « ابصار » ليوناردو هى بعينها فجر هذا النوع من المعرفة، فى مرحلة كان فيها لا يزال غير مكتمل المعالم ، ولا يزال يحتفظ بقدر من الاختلافات والتمايزات الكيفية ، ولم يكن العلم الجديد بعد قد أضاف اليها صورة العالم ذات المسحة الواحدة عند « ديكارت » ولا بناء « نيوتن » الذى كان أشد ايغالا فى مسحته الواحدة .

ان عقلانية ليوناردو السابقة على ديكارت كانت تفتقر الى المعيار المعرفى الأساسى عند ديكارت ، وهو معيار الوضوح . وكان معنى هذا المعيار فى القرن السابع عشر أن موضوعات المعرفة يمكن أن يعبر عنها تعبيرا لفظيا (وعلى وجه الخصوص تعبيرا رياضيا رمزيا) بأى درجة مرغوبة من الوضوح ، فاذا نحن لم نكتف بالاشارة الى موضوع أو احدى خصائصه ، بل ذكرنا اسمه أيضا ، فان الموضوع أو الخاصة يفقدان فردانيتهما، ويصبحان موضوعين لذلك التفكير الذى يعنى بالتصنيفات وبالمفاهيم . أما فى الفلسفة العقلانية ، فى القرنين ١٧ و ١٨ بصفة عامة ، فانهما لا يفقدان فردانيتهما فحسب ، بل يفقدان لونهما أيضا ، وهكذا فان ليوناردو يحتفظ بالألوان ، فالتصوير قد أصبح فلسفة بالنسبة له ، دون أن يكف عن أن يكون تصويرا . لكن كيف يتسنى للمرء عندئذ أن يتجاوز حدود ما هو فردانى ؟

يستبدل ليوناردو معيار التميز بمعيار الوضوح ، أو قل انه لا يستبدله به ، بل يستبقه : فمعيار التميز يسبق معيار الوضوح . والعقل هنا يعمل من خلال تحديدات كيفية ، وتعتمد قدرته المعرفية على ادراك الفروق الطفيفة بين الدرجات الكيفية . ولكى نوضح هذه النقطة نقول : ان العقل هو الذى يعمل من خلال التحديدات الكيفية . فمن

---

(١) أ . كاسيرر ، « الفرد والعالم فى فلسفة عصر النهضة » . ليبزج – برلين ١٩٢٧ ص ١٦٧ .

(٢) نربوريني ، عقل ليوناردو ، فلورنسا ١٩٥٣ ص ١٥٣ – ١٥٤
ف. جوبوف ، ليوناردو دافنتشى ، موسكو ١٩٦١ ص ٢٠٤

الواجب هنا أن لاندع العقلانية الكمية الرياضية عند ديكارت تحجب النزعات العقلية الكيفية عند ليوناردو الذى بات التميز فى الدرجة عنده أداة من أدوات العقل · ان ليوناردو بوصفه فنانا يستخدم درجات فى غاية الرهافة · وكانت مثل هذه الدقة ذات أهمية حيوية بالنسبة له · وهو نفسه يقول ان عقل المصور مثل المرآة ، فهو يتحول الى عدد من الألوان بقدر ما يوجد منها فى الأشياء التى أمامه (١) · ولكن ما المفروض أن يعبر عنه الفنان بمساعدة هذا العدد غير المحدود من الدرجات اللونية الدقيقة ؟

هنا نصل الى المهمة الرئيسية لتصاوير ليوناردو (التى كانت بالنسبة له المهمة الرئيسية للفلسفة) ، وأعنى بها تجاوز حدود الجزئى ، وجعل الجزئى عنصرا من عناصر الكلي · ان هذه المهمة ترنو الى المستقبل ، الى القرن السابع عشر ، والى العلم الكلاسيكى ، لأن عملية التوسع فى الجزئى أبعد ماتكون عن ادراجه منطقيا داخل نسق قبلى متكامل : اذ أن العملية الأولى تتم فى الزمان والمكان ، ومن ثم فأى تعميم منطقى يصبح تعميما مكانيا زمانيا ، وتصبح الوحدة داخل التباين حالة من حالات الهوية فى حضور محمولات مكانية زمانية متباينة · فالوحدة الحقيقية داخل التباين والتنوع هى هوية جسم مع ذاته ، حيث يكون ذا محمولات مكانية زمانية متباينة · والأحداث المتفردة تناظر وجود جسم ما فى أماكن مختلفة فى لحظات مختلفة ، وهويته الذاتية يضمنها له استمرار هذه السلسلة من المواضع واللحظات ، أى استمرار حركة الجسم· وهكذا نرى خطا من التعاقب بين التعميم المكانى الزمانى لما هو متفرد وبين التصور التفاضلى للحركة ، أو العلم الكلاسيكى ، وهو خط ان لم يكن مباشرا فهو على الأقل موصول غير متقطع ·

لقد كان ليوناردو يرى أن ميزة التصوير على الشعر كانت هى قدرته على رسم الأشياء والأحداث التى توجد معا فى المكان · وليست المسألة هنا مجرد جمع بين أشياء تحتل مواضع مختلفة على لوحة واحدة ، اذ أن أسلوب التلوين بأسره ، والعمق ، والخلفية ، والفاتح والغامق ، وتصوير المناطق الشفافة ونصف الشفافة ، كل ذلك يكشف حتما عن الرابطة بين الفردى والتنوع المكانى · لكن ليوناردو يذهب الى أبعد من ذلك ، فهو يريد للتصوير أن ينتقل من المتفرد والحسى ، والفردى الى التنوع الزمانى · وهذه النقلة هى التى تفتح باب التناسب الموضوعى فى الكون ·

ان التصوير عند ليوناردو ضرب من الفلسفة ، لأنه « يتناول حركة الأجسام وسرعة حركتها ، فى الوقت الذى تعنى فيه الفلسفة أيضا بالحركة (٢) ، بل انه ليذهب الى أبعد من ذلك ، فيرى أن التصوير والفلسفة يتخذان معا من التغير فى الحركة ، أى العجلة ، موضوعا لهما · وقد مضى على ذلك قرن ونصف قرن بأكملهما قبل أن تصبح العجلة من العمليات الأساسية فى العالم ، على حين كان ينظر الى السرعة على أنها حالة

---

(١) بحث فى الرسم ، ص ٥٦ ، ٥٨ ·

(٢) بحث فى الرسم ص ٩ ، ١

من الثبات • وانه لمن الواضح أن رسم ليوناردو ليس سكونيا ستاتيكيا، بل كان متحركا ديناميا • لكن دينامية ليوناردو لاتتمثل فقط فى عمله وممارسته كمصور ، بل تتمثل أيضا فى كتابه « بحث فى التصوير » حيث يقول : « ان التصوير ضرب من الفلسفة، لأن الفلسفة تتناول الحركة المتزايدة والمتناقصة » (١) •

ويقارن « ف • جوبوف » موقف ليوناردو بموقف «ليسنج (٢) • ذلك لأن ليسنج يقول فى كتابه « لاوكون Laokoon » ان المصور يلتقط من بين تتابع اللحظات لحظة واحدة ويثبتها • أما ليوناردو فيرى أن مهمة التصوير (والفلسفة) هى الامساك بعملية دينامية لابلحظة سكونية •

ويقول جوبوف عن موقف ليوناردو : « لنجمل الأمر مرة أخرى : ان كلمة « لحظيا » ، أو « فى لحظة واحدة » ، أو «فى اللحظة نفسها» ، أو « فى لحظة خاطفة » ، كل ذلك لايعبر عن لحظة انتزعت من مجرى الزمان • بل ان كلمة « لحظيا » هنا هى تلك التى تفترض أن هناك « قبل » و « بعد » ، أى أنها تنظر للزمن على أنه وسيلة للامساك بالسيال الحى للواقع • فالحياة آخر الأمر ليست ممكنة الا حيث يوجد « قبل » و « بعد » ، وحيث توجد رابطة بين « القبل » و « البعد » ، وبعبارة أخرى ليس الزمان « هادما للأشياء فحسب ، بل هو أيضا شرط ضرورى لحياتها الحقيقية (٣) » •

فلنحاول ترجمة هذا التصور الى لغة العلم الحديث • وليس هدفنا من ذلك هو أن نقرب ليوناردو من العلم الحديث ونجعل منه « رائدا » آخر ، بل ان من الضرورى ، لكى نحدد ما ينفرد به ليوناردو تاريخيا ، أن نطبق عليه هو نفسه معيار الارتباط بين « القبل » و « البعد » • « فالزمان من حيث هو شرط للحياة الحقيقية للأشياء » تعبر عنه استحالة وجود الأشياء وجودا حقيقيا خارج روابطها بالعلاقات الكلية الشاملة ، التى تحدد مسلك كل من هذه الأشياء • وهذه العلاقة المتبادلة تعبر عنها بالنسبة لكل جسم القوى المؤثرة عليه ، وأما مسلكة فتعبر عنه سرعته وعجلته فى لحظة معينة • ولقد اكتسبت مثل هذه الفكرة شكلها الكلاسيكى على هيئة علاقات ميكانيكية وهندسية متبادلة ، وأصبحت ميكانيكا «لاجرانج» هى التعبير الكلاسيكى عن هذه النظرة الى العالم• لكن لاينبغى أن نهبط بالفروق بين ليوناردو والشكل الكلاسيكى الى مستوى التعريف السلبى •

فبالنسبة لليوناردو فان الفكرة القائلة بأن الارتباط بين الحدث الفردى وبين الكلى هو معيار الوجود الفيزيائى لهذا الحدث لم تكن قد أخذت هذا الشكل المجرد

---

(١) بحث فى الرسم ص ٩ ، ١

(٢) ف. جوبوف ، المرجع السابق ، ص ٣٢٠

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٢٢

والدقيق . فتصوره كان استباقا مبكرا ، لا لعلم القرن الثامن عشر فحسب ، بل كذلك للعلم الكلاسيكى التالى . ففى القرن التاسع عشر اكتسبت الميكانيكا المجـــردة عند « لاجرانج » مكافئا أكثر عينية فى تصور المجال . وعلى ذلك فلا ينبغى للمرء أن يكتفى بالتقريب بين أفكار ليوناردو وبين الاطار الميكانيكى الهندسى ، اذ ليس هذا الاطار ، بل فكرة أوسع منه ، هو اكثر الملامح تمييزا للعلم الكلاسيكى . هذه الفكرة تنحصر فى الرابطة التى يمكن فهمها فيزيائيا بين جسم منفرد والأجسام الأخرى ، وهى رابطة تحدد مسلك الجسم بناء على قوانين تفاضلية ، ولو مضنيا أبعد من ذلك فى تفسير فكرة ليوناردو التى عبر عنها بقوله : « فلسفة تعالج التغيرات فى الحركة » لوصلنا الى مفهوم المجال الذى يحدد مسلك أى جسم ، ومثل هذا المعنى يرتبط بالأصل التاريخى لفكرة المجال .

يقول بول فاليرى فى كتابه « مدخل الى منهج ليوناردو دافنتشى » (١٨٩٤) : ان التفسير عند ليوناردو لم يكن قد بلغ بعد مرتبة القياس ، لكنه افترض وجود رابطة عينية مادية بين الظواهر . ثم يستطرد قائلا : « يهيألى أن هذا المنهج أخفق لمدة ثلاثة قرون بعدموت ليوناردو فى الحصـــــول على اعتراف به ، مـــع أن الجميـــع قد استخدموه » (١) . ويمضى فاليرى فى كلامه قائلا ان القوى المؤثرة عن بعد لاتتناسب مع هذا الافتراض فى العلم الكلاسيكى ، ولقد أعطيت هذه القوى شكلا تحليليا ، لكن نيوتن أدرك عدم كفاية تصور التأثير عن بعد بوصفه تفسيرا للظواهر المشاهدة .

ويستطيع المرء أن يضـــيف الى ذلك أن التأثيرات المتبادلة اللحظية ، ومن ثم تصور التزامن المطلق ، كان يناقض المثل الأعلى للعلم الكلاسيكى ، أى تفسير الظواهر من خلال التأثيرات المتبادلة ، لا فى المكان فحسب ، بل كذلك فى الزمان أيضا . ويقول فاليرى : « ان فاراداى هو الوحيد الذى عاد الى معيار التمثيل الفيزيائى لهذه التأثيرات المتبادلة » ، لقد وقعت على عاتق فاراداى مهمة اعادة منهج ليوناردو الى الفيزياء مرة أخـــرى (٢) .

وفى هذا الصدد يقتبس فاليرى هذه السطور الشهيرة من مقدمة ماكسويل لكتاب « بحث فى الكهرباء والمغناطيسية » : « لقد كان فاراداى يرى بعين العقل خطوط القوى وهى تخترق الفضاء بأسره ، بدلا من مراكز القوة التى تقوم بالجذب عن البعد والتى رآها علماء الرياضة ، أى أن فاراداى كان يرى وســيطا حيث رأوا هم مســـافة فحسب (٣) » . لكن لو اعتبرنا ليوناردو « مبشرا » بفاراداى لكان فى ذلك فقدان للاحساس بالتفرد التاريخى للأحداث فى تاريخ العلم ، بل لكان فيه أيضا فقدان المرء

---

(١) بول فاليرى ، المرجع الســـابق ص ١١٢

(٢) المرجع الســـابق ، ص ١١٢

(٣) المرجع الســـابق ، ص ١١٢ .

لاحساسه بالتناسب • لذلك فان مقارنة فاليرى بينهما لها معنى مختلف تماما • وهذا المعنى يزداد وضوحا اذا رجعنا مرة أخرى الى تطور العقلانية •

ان العقل الذى يستطيع ادراك التناسب الموضوعى فى العالم لايمكنه أن يقتصر على الأشياء الفردية ، ولقد قال أرسطو : « لو لم يكن يوجد شىء بخلاف الجزئيات لما أمكن للعقل أن يدرك شيئا ، لكان كل شىء مجرد موضوع للاحساس ، ولما كانت هناك علوم ، الا اذا زعم أحدهم أن الاحساس علم (١) » •

ولقد تحقق الانتقال من الجزئى الى العام فى صورة هندسية مجردة كثيرا ماصبغت بصبغة مطلقة عن طريق اضفاء معنى قبلى على التصورات المجردة • وفى الوقت نفسه سعى التفكير العلمى الفلسفى الى ايجاد ميكانيزم ـ يمكن تمثيله ـ للتأثير المتبادل بين الأجسام المنفردة ، أى ميكانيزم يحمل أوجه شبه مع عمليات يمكن ادراكها بالحس ، سواء كانت أوجه الشبه هذه مباشرة كما هى الحال عند فاراداى ، أو مشروطة كما هى الحال عند ماكسويل • ولقد كان تصور المجال المادى فى أعمال فاراداى وماكسويل ، بمعنى ما ، مركبا يجمع بين طبيعة النموذج وطبيعة التصور المجرد •

ان بعض الفروض المنطقية والنفسية عن الجانب الحسى « التأثر بفكرة النموذج» للتفكير العقلانى فى القرن ١٨ ، ١٩ (وهو جانب يمكننا التعبير عنه بصورة أقوى فنسميه « العنصر » الحسى فى ذلك التفكير) كانت ترجع الى تراث يمتد حتى عصر النهضة ، فى حين « لم يكن التعبير قد أصبح قياسا بعد نيما يقول فاليرى ، بل انه ليمتد الى أبعد من ذلك ، الى الاسميين فى القرن ١٤ ، بل أبعد من ذلك أيضا • لكن القرن الرابع عشر قد حول مجرى ضيقا الى نهر واسع • فالفن والتكنولوجيا فى عصر النهضة جعلا أفكار الناس عن الطبيعة أكثر موضوعية ، ووضوحا ، وتلونا ، وأقرب الى الذوق الجديد ، وتخلصا من بعض الأقيسة التقليدية • وفى أعمال ليوناردو امتزج الفن والتكنولوجيا بدفاع صريح عن الصور العينية بوصفها منهجا للمعرفة العقلية بالكون • ومن الممكن فى عصرنا أن نرى بمزيد من الوضوح والعمق « الروابط » المنطقية والخطوات التاريخية التى تربط أفكار الماضى باحدث أفكار الحاضر ، وأن نرى فى هذه الأفكار أسئلة موجهة الى المستقبل ، بعضها لم يجد بعد جوابا • فالمشكلة الرئيسية للفيزياء النظرية فى عصرنا هى مشكلة وجود الجسيمات الأولية • فلنحاول أن نحدد بمزيد من الدقة المعنى العينى ، الحديث ، الخاص ـ أعنى الخاص بالنسبة الى النصف الثانى من القرن العشرين ـ الذى أعطى لهذا التصور الشديد العمومية فى الفلسفة ، والذى ربما كان أعم التصورات كلها •

اننا نعرف قدرا لا بأس به من المعلومات عن مسلك الجسيمات الأولية فى المجالات المكانية الزمانية الكبيرة نسبيا (بالمقارنة بالمقياس تحت النووى مثل ١٠^-١٣ سم و ١٠^-٢٤

---

(١) الميتافيزيقا ، الجزء الثالث ٥٤ ، ٩٩٩ ب

ثانية) • هذا المسلك ـ أى الموضع ، والسرعة ، والعجلة ـ ترسمه لنا خطوط المجال الخاصة بهذه الجسيمات ، لكننا لانكاد نعرف شيئا عن طبيعة بعض خواص هـــذه الجسيمات مثل كتلتها وشحنتها ، مع أن هذه الخصائص هى التى تميز أحد أنواع الجسيمات عن الآخر • وعلاوة على ذلك فان هذه الخصائص هى التى تميز المادة (أى ما يسميه ديموقريطس « بالوجـــود ») عن المكان (أى ما يســـميه ديموقريطس « باللاوجود ») • ولدينا من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن الفرق القائم بين خطوط المجال وصورتها الهندسية ، أو بين جسيم وتحديد موضعه من حيث الأبعاد الأربعة ، هو نتيجة عملية التحويل التى تحيل الجسيمات من نوع ما إلى جسيمات من نوع آخر فى خلايا مكانية زمانيةعلى مستوى ١٠ –١٣ سم و١٠ –٢٤ ثانية • لكننا نصادفهناموقفا شديد الغرابة •فمسلك الجسيمات الأولية على المستوى المكبر يفقد معناه الفيزيائى (ولا يمكن الوقوف عليه تجريبيا) ما لم تكن هناك تحولات على المستوى الميكروسكوبى المصغر • لكن هذه الأخيرة تفقد معناها الفيزيائى ان لم يكن هناك مسلك على المستوى المكبر ، لأن التغير فى نوع الجسيم ، بل نوعه نفسه ، لايمكن تحديده الا بصورة خطوط مجال هذا الجسيم • فالتغير فى نوع الجسيم ، أو التحول ، عبارة عن نقلة من خط مجال ممكن الى آخر ، وهكذا فان التكامل بين التحولات الموضعية وخطوط المجال على المستوى المكبر هى مشكل جديد للتكامل القديم بين الفردى والكلى • لقد نسب العلم الكلاسيكى حركة كامنة وسرعة وعجلة الى الجسيم عند نقطة معينة ، محددا حركته بنقطة ، ومن ثم كان يحصل على قيم نهائية ، ويربطها بالتأثير المتبادل بين الجسيمات ومجالات القوى • وقد استوعب العلم هذا النهج فى القرن ١٧ ، أما فى القرن السابق عليه فقد رأى « جوردانو برونو » ان الوجود الحقيقى للجزئى هو انعكاس للـــكون اللامتناهى ، وفى القرن ١٥ وحد ليوناردو المعايير الجمالية مع المعايير المعرفية ، فأعطى للجزئى طاقة تدفعه للخروج الى نطاق الكلى ، أى الى التنوع المكانى والزمانى •

الـكاتب : بوريس جريجوريفتش كوزنيتسوف

ولد عام ١٩٠٣ • دكتوراه فى العلوم الاقتصادية ، أستاذ بمعهد العلوم الطبيعية التـابع لأكاديمية العلوم السوفيتية بالاتحاد السوفيتى . وأهم مؤلفاته : « انشتاين ، وجاليليو» و « مشكلات نظرية النسبية » •

المترجم : الاستاذ سماد جبران

ليسانس الاداب من قسم الفلسفة



بقلم
آدم شاف
ترجمة
فؤاد أندراوس

المقال فى كلمات

ان الوقائع التاريخية لاخلاف فيها بين المؤرخين اذا كان لها وجود فعلى ، وينحصر الخلاف بينهم فى تأويلها • وتختلف وجهات النظر بتباين المفاهيم التى تتطور بدورها بتطور المعرفة الانسانية • ولكن ماهى الواقعة التاريخية ؟ ان كل ما حدث فى الماضى لايعتبر وقائع تاريخية ، فالوقائع التاريخية هى تلك الوقائع التى لها أهمية تاريخية• والفرق بين الوقائع العادية والتاريخية أن العادية وقائع مرت مر الكرام وتوارت فى خضم الأيام ، أما الوقائع التاريخية فهى وقائع ذات ثقل وتأثير ايجابى فى ماجريات الأمور • ولكن هل الواقعة التاريخية بسيطة أم مركبة ؟ ان الوقائع التاريخية ، وان كانت فى ظاهرها بسيطة ، الا أنها معقدة للغاية ، اذ ترتبط بأسباب ومقدمات وأحداث ونتائج • والواقعة التاريخية فى نظر ((بيكر)) ليست الحدث نفسه الذى قد زال ، بل هى رمز يبعث فى خيالنا صورة الحدث • وقد أثارت هذه النظرية جدلا واسع المدى بين علماء التاريخ ، اذ أنهم يرون فى الحدث مكونا من مكونات الماضى مرتبطا بالواقع بخيوط لاحصر لها • ودور المؤرخ حيال تحليل الأحداث دور ناظم العقد ينظمه طبقا للهدف الذى يسعى اليه • فالحدث نفسه والوقائع نفسها لاتقول شيئا ، ولا تفرض دلالة • انما الذى يتكلم هو المؤرخ ، وهو الذى يفرض الدلالة • ولكن كيف يتخير المؤرخ الوقائع التاريخية من بين الكثير من الاحـــداث مما لم يدخـــله المؤرخ فى

حسابه ؟ ان المؤرخ يختار ، على أساس غرض معين أو نظرية ما ، الأحداث التى ترتفع الى مقام الوقائع التاريخية • وهذا هو السبب فى أن واقعة ما ارتفعت الى مقام الواقعة التاريخية فى وقت ما ، أو بواسطة مؤرخين ينتمون لمدرسة ما ، وان تكن هذه الواقعة قد تغوضى عنها فى وقت آخر ، أو بواسطة مدرسة أخرى • ولذلك فان اختيار الوقائع يتوقف على الخلق التاريخى الذى يقوم به المؤرخ للنظرية التى يعلنها •

« ليست الوقائع فى حقيقتها كالسمك على لوحة بائع السمك • انما هى أشبه بالسمك السابح فى محيط هائل ، محيط بعيد المنال أحيانا ، وما يصـــيده المؤرخ منه يتوقف الى حد ما على الصدفة ، ولكنه يتوقف قبل كل شيء على ذلك القسم من المحيط الذى اختار الصيد فيه ، كما يتوقف على الطعم الذى يستخدمه فى الصيد •

وهذان العاملان يحددهما بالطبع نوع السمك الذى ينوى صيده • ويمكن القول على العموم بأن المؤرخ سيجد نوع الوقائع التى ينشدها » •

أ • هـ • كار « ماهو التاريخ ؟ »

من الطبيعى أن نبدأ تأملاتنا فى موضوعية الحقيقة التاريخية بالبحث فى الواقعة التاريخية • وربما كان السبب الوحيد لهذه البداية أننا على العموم نرى ــ وهو رأى له ما يبرره من بعض النواحى ــ أن الخلافات بين المؤرخين لاتظهر الا منذ اللحظة التى يتناولون فيها تفسير الوقائع ، ذلك لأن بنيان هذه الوقائع متماثل ، اذا افترضنا توفر مستوى معين من المعرفة والتقنية فى البحث • أما وقد قررنا هذا فليس من الضرورى أن نمضى الى المدى الذى مضت اليه مدرسة رانكى ، ونطلب أن تقتصر مهمة المؤرخ على عرض الوقائع « البحت » دون تفسير أو تعليق ، ويكفى أن نقول اننا حين نستعمل لفظ « الواقعة » فى سياق علمى أو تاريخى ، فاننا نعبر فى غير لبس ولا غموض ، وأنه ــ بالتالى ــ اذا أثبت انسان واقعة تاريخية بطريقة وافية فانه يثبتها لصالح جميع من تعنيهم هذه الواقعة ، فالوقائع التاريخية باعتبارها منتجات ، وكذلك البحوث التى يقوم بها الباحثون لاثباتها ، لاتتأثر اذن بـ « العامل الذاتى » فى عملية اكتســـاب المعرفة ، سواء بمعناها الخاص أو بالمعنى الاجتماعى •

وسنستبق حججنا الأخرى ونبادر بالقول من الآن اننا لو عارضنا وجهة النظر هذه باعتبارها بدائية لوجدنا أنفسنا نقف موقف الفيزيائى الذى يجرى بحوثه مبتدئا من الميكانيكا الكمية ، ومن ثم فهو يعتبر ذلك الانسان الذى لايعتمد ــ فى عصرنا هذا ــ

الا على مجموعة المفاهيم التى ينتظمها النسق النيوتينى دون غيرها أداة له فى بحثه ـ نقول انه لامحالة يعتبره بدائيا وغير كفء علميا • أو ـ بعبارة أكثر وضوحا من هذا ـ اننا نقف موقف الفيزيائى الملم الماما كاملا بما حققه الانسان فى هذا العصر من معرفة ببناء الذرة ، الذى عليه أن يبدى رأيا فى الكفاية العلمية لأولئك الذين يريدون حتى فى يومنا هذا أن يطبقوا فى البحث مجموعة المفاهيم التى كان يستخدمها باحث الذرة فى القرن التاسع عشر ، والذى يرى ـ كما رأى القدماء من قبل ـ أن الذرة أصغر جسيم فى المادة ،وأنها غير قابلة للانقسام ، وأنها فى شكلها أشبه ماتكون بكرة المطاط الصغيرة• هذه الفكرة بالطبع بدائية ان وجدت ، وهى دليل على عدم الكفاية وعلى الجهل بالفيزياء الحديثة ، ولكنها لن تكون خطأ خالصا مطلقا ، ففى ظروف معينة يجوز للمرء ، ولابد لـه ، استعمال النسق النيوتينى ، ونظرية دالتون الذرية تتضمن عناصر صحيحة الى حد ما ، ونحن اذا قسناها بمقاييس العلم الجديد لم نجدها « أقدم » جدا من غيرها من النماذج الأكثر تطورا وصحة كنظرية رذرفورد مثلا • ومرد هذا حقيقة معروفة ، وهى أن عملية اكتساب المعرفة لانهاية لها ، وأن أى حقيقة يتوصل اليها أثناء هذه العملية فى لحظة ما انما هى حقيقة جزئية ، وهى بهذا المعنى نسبية ، ومن ثم تقضى عليها بأن تلحقها الشيخوخة « وأن تتجاوزها حقيقة أكمل منها • ورغم ذلك كله فهذا لايعنى أن الحقيقة الجزئية ، المنبثقة ضمن سواها من المستوى الراهن للمعرفة العالمية ، لا يمكن أن تكون حقيقة موضوعية ، وانها ـ ببساطة ـ خطأ •

وليس فى وسع انسان فى يومنا هذا أن يدافع عن النظرية القائلة بعدم قبول الذرة للانقسام اطلاقا ، وبأنها كرة مطاطة صغيرة من المادة ، والا سلكة الناس فى عداد الجاهلين ، وبالمثل يستحيل الدفاع اليوم عن النظرية الزاعمة أن الواقعة التاريخية أشبه بمكعب صغير يحتفظ بشكله دائما وبالنسبة لجميع الناس ، وأن فى أستطاعة المرء أن يقيم بهذه المكعبات أبنية لاتختلف الا فى الطريقة التى رتبت بها (١) • ولكن هذا لايعنى ، كما أسلفنا ، أنها خطأ خالص مطلق • كلا ، فالمهمة أعسر وأعقد من هذا بكثير ان أردنا ـ من جهة ـ أن نعارض وجهة النظر البدائية التى لاتستطيع أن تستوعب وتتذكر دورا واضحا هو الدور الذاتى فى اكتساب المعرفة، ومن جهة أخرى اذا أردنا أن نبقى على ما فى نظرية الواقعة التاريخية من صدق موضوعى ، فلا نضيع الجوهر مع العرض • وتحقيقا لهذا الهدف علينا أن نبدأ بعملية أساسية من زاوية التحليل المعنوى ، أى علينا أن نوضح دلالات مصطلحاتنا • فلنبدأ اذن بمحاولة لتحليل مصطلح « الواقعة التاريخية » •

كتب « كارل ل. بيكر Carl L. Becker» ، لسان حال « الحاضرية presentism»

---

(١) المقارنة والحجج مستعاران من لوسيان فيفر الذى انتقد مفهوم التاريخ عند الفلاسفة الوضعيين : «L'histoire historisante» (انظر لوسيان فيفر Lucien Fehvre, Combats pour l'histoire, Paris 1953, p. 114 f.)

المعروف فى الولايات المتحدة الأمريكية مقالا هو فى رأيى من أمتع ما كتب عن الواقعة التاريخية (١) ·

وفى بداية مناقشته لموضوعه يمهد بيكر له خير تمهيد ، لذلك سنبدأ بابراز فقرة من مقاله · يقول :

« حين يذكر أحدهم «الوقائع» نتفق كلنا معه · فاللفظ يعطينا شعورا بالاستقرار · ونحن نعرف أين نحن حين نقول اننا « نتناول الوقائع » ، كما نعرف مثلا أين نحن حين نتناول الوقائع المتعلقة ببناء الذرة أو بحركة الالكترون غير المتوقعة وهو يقفز من مدار الى مدار · كذلك الحال فى التاريخ · فالمؤرخون يشعرون بالأمان حين يبحثون فى الوقائع · ونحن نتكلم كثيرا عن « الوقائع الباردة Cold » و « الوقائع الصلبة hard » ونقول « اننا لانستطيع أن نتجاوز « الوقائع » ، وأنه من الضرورى أن نرسى قصتنا على « أساس مكين من الوقائع » · وبمثل هذا الكلام تبدو لنا الوقائع التاريخية صلبة ، واقعية ، كأنها المادة الطبيعية ··· شيئا له شكل محدد وأبعاد واضحة ــ كالطوب والمقاييس مثلا ــ بحيث نستطيع بسهولة أن نتصور المؤرخ وهو يتعثر فوق الماضى وتزل به قدمه فوق الوقائع الصلبة ان لم يأخذ حذره · ولا شك أن هذه مهمته ، انها خطر يتعرض له ، لأن واجبه أن يثبت الوقائع وأن يجمعها معا ليستخدمها غيره · ولعله هو نفسه يستخدمها ، ولكن عليه أن يرتبها ترتيبا مناسبا ليحقق من ورائها هدفا نافعا ، بحيث يتاح لأى انسان ــ للباحث الاجتماعى أو لرجل الاقتصاد مثلا ــ أن يتصفحها ليستعين بها فى أى مشروع بنائى (٢) » ·

وبعد أن يضيف كارل بيكر أن الأمر ليس بالبساطة والسهولة الباديتين ، وأن عبارة « الواقعة التاريخية » يشوبها الغموض الذى يشوب معدلات « الحرية » و « العلة » الخ ، يقترح ــ جلاء للبس ــ مواجهة ثلاثة أسئلة :

١ ــ ما الواقعة التاريخية ؟

٢ ــ وأين توجـــد ؟

٣ ــ ومتى تظهر ؟

فلنبدأ اذن ــ كما يقترح بيكر ــ بالسؤال الأول :

---

(١) Carl L. Becker, «What are Historical Facts ?» فى مجلة The Westerm Political Quarterly, VIII, بتاريخ 3, Sept. 1955, P. 327-340. نقـــله Hans Meyerheff (ed). فى The Philosophy of History in Our Time, New York 1959, P. 120-137

(٢) النص السابق ص ١٢٠ ــ ١٢١

لقد لجأنا الى مثال من دنيا العلوم الطبيعية تمهيدا للادلاء بحججنا عن الوقائع التاريخية ولابد لنا كذلك من القول ان سؤال « ما الواقعة ؟ » لايقتصر اطلاقا على التاريخ أو العلوم الاجتماعية عامة ، فلقد طرح نفسه قبل ذلك بكثير فى دنيا العلوم الطبيعية ، بكل ما يصاحب دور العامل الذاتى من متعلقات • وأول من طرحه هم فلاسفة المواضعة Conventionalists الفرنسيون ، وأبرزهم خط « بوترو ـ بو انكاريه ـ دويم ـ لوروا » ، فقد بدأوا بمشكلة الدور الذى تلعبه اللغة (مجموعة المفاهيم) ، والتعريف ، والنظرية ، فى تطوير العلوم ، وانتهوا (خصوصا لوروا) الى التشكك فى « الوجود المستقل » للواقعة العلمية وفى « سيادة » هذه الواقعة ، وشمل بناؤهم بالمثل « الواقعة الخام » ، أى التى ليست مكملة لنظرية • وأيا كانت ، مواطن الضعف فى مذهب المواضعة ، وخاصة من ناحية « الذاتية » ، فان له فضلا لاينازع ، هو طرح مشكلة الدور الذى تلعبه مجموعة المفاهيم فى بناء العلم ، وخاصة فى ادراك وصياغة ما يسمى بالوقائع العلمية • وعلم التاريخ من هذه الناحية متخلف زمنيا ، مهما بدا فى هذا القول من غرابة ، نظرا الى توفر الأدلة الخاصة والى أهمية المشكلة فى هذا السياق ، وهناك على الاخص الكثير الذى يجب تعلمه من التأمل وراء النظرى فى دنيا العلوم الطبيعية ـ سواء بالمعنى الايجابى أو بمعنى الوعى بالأخطار المحدقة ـ اذا كان الأمر متصلا بدور اللغة الايجابى فى دراسة الوقائع التاريخية •

ولكن لنعد الى السؤال : لابد لنا أولا من تحديد ما نعنيه بكلمة « الواقعة التاريخية » فى علوم التاريخ • وما دام السؤال غامضا متشعبا الى عدد من الأسئلة العينية ، فان شكل الجواب يختلف باختلاف المعنى الذى نخلعه على السؤال•

فلننظر أولا فى الظواهر التاريخية أيها يمكن أن نسميه وقائع تاريخية • نحن نقول مثلا ان عبور قيصر نهر الروبيكون واقعة تاريخية • اذن فان شيئا ما ، حدث مرة واحدة فقط ، قد يشكل واقعة تاريخية (قد يشكلها ، ولكنه لايشكلها حتما ، ولن نسلك فى هذا الباب الكثرة العظمى من الأحداث اليومية التى تعد بالملايين) • على أن عمليات معينة لها سمات محددة معينة يمكن بالمثل أن تكون وقائع تاريخية • فنحن نقول ان الاضمحلال الذى طرأ على النظام الاقطاعى فى الريف نتيجة لازدياد قوة العلاقات الرأسمالية فى المدن يشكل « واقعة » تاريخية فى تاريخ روسيا فى القرن التاسع عشر • كذلك قد تشكل نظم معينة ودورها فى الحياة الاجتماعية وقائع تاريخية (كبناء « الدايت » وتشاطه فى بولندة فى القرن الثامن عشر مثلا) ، وكذلك المتنجات التى نشأت عن أحداث وعمليات معينة كالدساتير ، والقوانين ، الخ ، والمنتجات المادية للثقافة قد تكون وقائع تاريخية كاللقايا الأثرية والحلى المكتشفة فى المقابر القديمة والأدوات والآنية والمخترعات العلمية والأعمال الفنية وحتى حبات الغلة التى حفظت سليمة من العطب •

وهكذا نرى أن عناصر وجوانب مختلفة للتاريخ ، أى التاريخ بمعنى « أشياء تمت » ، قد تشكل وقائع تاريخية : كالأحداث التى وقعت مرة فقط ، والعمليات الطويلة الأمد ، وكذلك العمليات المتكررة ، ومختلف المنتجات المادية أو الروحية لهذه الأحداث والعمليات • يلوح اذن أن نطاق مايمكن أن يسمى « الواقعة التاريخية » نطاق زاخر متنوع ، ويمكن ــ من الناحية النظرية ــ أن يكون كل مظهر من مظاهر حياة الانسان الاجتماعية واقعة تاريخية • نقول يمكن ، ولكنه ليس حتما • وهكذا فرقنا تفريقا واضحا بين الحدث الذى وقع فى الماضى (ولنا أن نسميه واقعة ، بمعنى أنه حدث فعلا) وبين الحدث الذى يهم أو يمكن أن يهم علم التاريخ بسبب أهميته فى العملية التاريخية • والنتيجة البسيطة لهذا التمييز هى أن كل واقعة تاريخية هى حدث وقع فى الماضى (أى واقعة) ، ولكن العكس ليس صحيحا ، أى أنه ليست كل واقعة من وقائع الماضى ، آليا ، واقعة تاريخية •

وهذا قول بالغ الأهمية ، فهو يعنى أن الفرق النوعى بين ماهو واقعة تاريخية وما ليس كذلك يجب ألا يلتمس فى التمييز بين الأشياء أو الأحداث ، بين الظواهر التى حدثت مرة فقط وتلك التى تكررت ، الخ ، بل ان علينا أن نبحث ــ ببساطة ــ فى اطار العلاقات ، فى سياق نوعى يجعل من الشىء أو الحدث العادى شيئا خاصا ، فيه من الخصوصية مايكفى لجعله جديرا باسم « الواقعة التاريخية » ، وعلى ذلك سنعنى فيما يلى بهذا المعيار الذى يتيح لنا فصل الوقائع التاريخية عن الوقائع عامة •

ولننتقل الآن الى المعنى الثانى لسؤال : ما الواقعة التاريخية ؟

وفى هذه المرة ــ كما اقترحنا ــ سنفرز من بين مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية (الوقائع) تلك الجديرة بأن تسمى «وقائع تاريخية» طبقا للتعريف • ولايعنينا ــ كما عنانا فيما سبق ــ أن نبين هل بعض المظاهر الخاصة للحياة، أوبعض التفرعات الخاصة لهذه المظاهر ، جديرة بهذا الاسم • انما علينا أن نقرر ما الذى يجب أن يتسم به مظهر ما من مظاهر الحياة حتى يستحق هذا الاسم الذى ننكره على غيره من المظاهر التى تنتمى للفئة نفسها ، لأنه يلوح أن من المحتمل أن نتناول جميع مظاهر الحياة •

وتعريف الواقعة التاريخية يبدأ عموما بالقول بأنها تتصل بوقائع الماضى • وهو قول صادق ، ولكنه صدق تافه بحيث لايستحق الذكر • فما دمنا نتناول شيئا انقضى، ولو فى اللحظة التى نتحدث فيها ، فمن الواضح أننا مازلنا نتحدث عن وقائع الماضى، لأنه طبقا للتعريف لاشىء آخر يمكن أن يظهر على المسرح • هذا اذن واضح ولا معنى لاطالة الوقوف عنده • ويكفى أن نقول ان أى مظهر من مظاهر حياة الفرد أو الجماعة يمكن ان يكون واقعة تاريخية (ذاكرين الصلة الديالكتيكية بين هذين القطبين البادىى التنافس ، لأن الفرد دائما اجتماعى ، ولأن الجماعة تعلن عن نفسها فى صورة نشاط الأفراد الذين تتألف منهم) • وكل مظهر من مظاهر الحياة يمــــكن أن يكون واقعة

تاريخية ، ولكنه ليس كذلك بالضرورة ، ومهمتنا بالضبط هى معرفة اللحظة التى يصبح عندها هذا الامكان حقيقة واقعة ·

ان عبور قيصر الروبيكون عام ٤٩ ق·م · لاجدال فى أنه واقعة تاريخية · ولكن الروبيكون عبره قبل قيصر وبعده آلاف الناس ، ونحن لانعتبر عبورهم هذا وقائع تاريخية · وجواب السؤال «لماذا» هو فى هذه الحالة بسيط ، فالأمر متوقف على سياق الحدث ، وارتباطاته بأحداث أخرى ، سواء من ناحية السبب أو النتيجة · فعبور قيصر الروبيكون عام ٤٩ ق·م · أنهى صورة من صور نظام روما القديمة ، وكان علامة بداية لصورة جديدة · أما ألوف المرات الأخرى التى عبر فيها قيصر نفسه أو غيره من الناس الروبيكون ، قبله وبعده ، فلم تتضمن هذه المعانى · وقولنا انه لم يكن لها اهمية تاريخية معناه انه لم يكن لها مثل هذه النتائج ·

ومثل هـذا قد يقال فى شتى مجالات الحياة ومالها من مظاهر متنوعة · فهناك أحداث وعمليات ، كما أن هناك منتجات مادية وروحية شتى لهذه الأحداث والعمليات (كآداب المجتمع وعاداته مثلا) ، لانتردد فى اعتبارها « وقائع تاريخية » ، فى حين أننا لاننعت غيرها من نوعها بهذا الاسم · ذلك لأن تلك ــ كما نقول ــ تتخذ أهمية كبرى بسبب نتائجها ، فى حين لا نرى لهذه مثل هذه الأهمية ·

اذن فالمسألة دائما مسألة سياق أو محيط معين ، مسألة ارتباطات مع كل ، كما أنها ارتباطات بنسق للعلاقات · وهذا النسق فى غاية الأهمية ان أردنا فهم الطابع النسبى لما نسميه « الواقعة التاريخية » · ولا بد لنا من أن نكون على وعى به ان شئنا أن نتبين لم كان الحدث نفسه ، أو العملية نفسها ، أو منتجاتهما المادية والروحية ، مفتقرة الى الدلالة التاريخية من وجهة نظر ما ، فى حين أنها من وجهة أخرى وقائع تاريخية ذات أهمية · فالباحث الذى يريد تعيين مصادر التاريخ السياسى مثلا لبلد ما لا يكترث بشهادة ثقافة هذا البلد وفنه مالم يرتبطا ارتباطا مباشرا بحياته السياسية · انهما يبدوان فى نظره لا مغزى لهما ، فى حين أنهما يصبحان من الوقائع التاريخية المهمة (لا فى جميع المجالات بالطبع ، ولكنهما قد يصبحان كذلك فى ظروف معينة) اذا وضعا فى سياق تاريخ ثقافة البلد أو العصر الذى تدور المناقشة حوله · وقد يكون هذا تعليقا تافها ، ولكن لابد منه أن أردنا أن نفهم تحليل مفهوم « الواقعة التاريخية » الذى نحن بصدده ·

يتضح اذن أن الوقائع التاريخية مظاهر لحياة الأفراد أو الجماعات اختيرت من بين غيرها من المظاهر الكثيرة التى تنتمى للنوع نفسه ، وذلك لارتباطاتها العملية ولما لها من تأثير داخل اطار كل أوسع منها بكثير · ومعيار الاختيار هنا هو الثقل ، أو التأثير الذى للحدث الخاص أو العملية الخاصة أو منتجاتهما · فنحن اذن نفترض نسقا للعلاقات يجرى التقويم ، وبالتالى الاختيار ، فى اطاره وبمقتضاه ، كذلك نفترض وجود ذات تحدث هذا التقويم والاختيار · ومع الذات التى لا غنى عنها يدخل العامل

البشرى ميدان الوقائع التاريخية بكل ما يرافقه من المضاعفات التى تنشأ عن الدور الايجابى للذات ، ومن تأثير للعامل الذاتى فى عملية اكتساب المعرفة • ولنا عود الى هذه المشكلة حين نحلل بمزيد من التفصيل مشكلة اختيار الوقائع التاريخية ، وتكفى الآن هذه العبارة العامة التى انتهينا الى صياغتها جوابا للسؤال الذى نناقشه ، وهو « ما الواقعة التاريخية ؟ » •

أما المعنى الثالث للسؤال عن الواقعية التاريخية فخاص ببنيانها • علينا أن نتبين أهى واقعة « بسيطة » أم « مركبة » كما يصفها البعض ، حقيقة « خاصة » أم «عامة» كما يزعم غيرهم ، أم أنها شيء آخر غير هذا كله •

لنعد الى مقال كارل بيكر الذى نقلنا عنه من قبل ، والذى يبدأ نقاشه بهذا المعنى من السؤال :

« فلنبدأ اذن بهذا السؤال : ما هى الواقعة التاريخية ؟ دعونا نأخذ واقعة بسيطة كأبسط ما تكون الوقائع التى يهتم بها التاريخ • نقول مثلا : « فى عام ٤٩ ق • م • عبر قيصر نهر الروبيكون » ، تلك واقعة مألوفة يعرفها الجميع ، ولعلها امتازت ببعض الأهمية لأنها واردة فى كل ما كتب عن قيصر العظيم ، ولكن هل هذه الواقعة بالبساطة التى تبدو بها ؟ ألها هذا المضمون الواضح ، الدائم ، الذى ننسبه عادة للواقعة التاريخية البسيطة ؟ حين نقول ان قيصر عبر الروبيكون فنحن بالطبع لانعنى أنه عبره وحده ، بل مع جيشه • والروبيكون نهر صغير ، ولست أدرى كم من الزمن استغرق جيش قيصر فى عبوره ، ولكن لابد أن العبور اقترن بأعمال كثيرة وبكلام كثير ، وبأفكار كثيرة لرجال كثيرين ، أى أن مئات «الوقائع» الأصغر تضافرت لتكون هذه الواقعة البسيطة الواحدة ، وهى أن قيصر عبر الروبيكون ، ولو قيض لنا كاتب ، كجيمس جويس مثلا ، يكتشف هذه الوقائع ويربط بينها لاقتضاه ذلك ولا ريب كتابا من ٧٩٤ صفحة يقدم فيه هذه الواقعة البسيطة ، وهل أن قيصر عبر الروبيكون • وهكذا يتضح أن الواقعة البسيطة ليست على الاطلاق واقعة بسيطة • أما البسيط فهو تقرير هذه الواقعة ، أى التعميم البسيط لمئات الوقائع » •

ويواصل المؤلف حجته ، فيؤكد أننا نعتبر عبور قيصر الروبيكون واقعة تاريخية ، بعكس غيره من مئات المرات التى يعبر فيها الناس هذا النهر يوميا ، لا لشيء الا لأننا نرى ونفهم ارتباطاته بغيره من الأحداث والظروف ، كالعلاقات بين قيصر وبومبى مثلا ، وبينه وبين مجلس الشيوخ ، وبينه وبين الجمهورية الرومانية ، أو كالأمر الذى أصدره اليه مجلس الشيوخ بالتخلى عن قيادة الجيش الغالى ، أو كرفض قيصر الاذعان للمجلس وأهمية عبور الروبيكون فى زحفه صوب روما ، الخ ، الخ •

ويخلص بيكر الى هذه النتيجة :

« صحيح بالطبع أن الواقعة البسيطة تتضمن ارتباطا بغيرها (من الأحـــداث الأخرى لهذه الفترة) ، ولهذا وحده بقيت حية طوال ألفى عام • انها متصلة بوقائع أخرى كثيرة ، بحيث لايـكمن أن تـكون ذات أهمية الا اذا فقدت حدودها الدقيقة • ولا يمكن أن يكون لهـا معنى الا اذا اندمجت فى ذلك النسيج المعقـد للظروف التى أوجدتها » •

يتضح اذن أن الواقعـة التاريخية البسيطـة ليست بالشيء الصـلب البارد ، الواضح الحدود والأبعاد ، المؤثرة بضغط قابل للقياس ، كالطوبة مثلا • فهى على قدر ما نفهم ليست الا رمزا ، تقريرا بسيطا يشكل تعميما لمئات من وقائع أبســـط لاننوى الاشارة اليها فى اللحظة الراهنة • وهذا التعميم لا يمكن استخدامه اذا نحن عزلناه عن شبكة أوسع من الوقائع والتعميمات التى يرمز اليها • ويمكن القول بوجه عام انه كلما ازدادت الواقعة التاريخية بساطة ، ووضوحا ، وتحددا ، وقبولا للاثبات ، قلت قدرتنا على استخدامها لذاتها •

والنظرية واضحة : فليس هناك وقائع بسيطة ، وبساطتها ليست الا ظاهرية ، وهذا الوهم انما تثيره بساطة العبارة التى لا تأخذ فى الاعتبار غنى الواقع العينى رغبة فى التعميم • فهذا الواقع يتألف فى جميع الحالات ــ وفى تلك التى تبدو فى غاية البســـاطة ، فى أبسط عبارتنا عن الأحداث المفردة ــ من حلقات لا حصر لها تربط هذه الواقعة بغيرها من الأحداث أو العمليات ومنتجاتهما ، التى فى سياقها تظهرالواقعة ويمكن فهمها • والواقع يقرره على الدوام كل متعدد الارتباطات متواقف المقومات • وما يسمى بالواقعة البسيطة ليس الا عنصرا واحدا انتزع من سياق الكل • وشكل الواقعة التى نحن بصـــددها بسيط حقا بفضل طابعه التجريدى ، ولـكننا لو أردنا تطبيقه على الواقعة نفسها لفقدت كل معنى لها ولما عادت واقعة تاريخية • اذن فليس هناك وقائع بسيطة ، وكل الوقائع التاريخية معقدة غاية التعقد • وقد قال لينين مرة ان الالكترون لامتناه فى امكانات دراســـته وتحليله كالمـادة سواء بسواء ، وهذا القول يصدق على ما نسميه الواقعة البسيطة فى ميدان التاريخ مع عدم تجاهل الفوارق بين الحالتين •

وتحليل بيكر والنتائج التى خلص اليها صحيحة ، وهى ديالكتيكية فى عمق (ولنا عود الى ما نخالفه فيه منها) • ان سؤالا سيء الصياغة ــ كما نعلم ــ يمكن أن يقلب مجرى البحث • فاذا انتزع المرء نواحى معينة من سياقها ، وأخذ عبارة ذات طابع تجريدى ، ليثبت أن الواقع الذى تشير اليه العبارة « بسيط » ، فان الخطأ يمكن أن يعزى لا الى « الوقائع » ، ولكن الى مؤلفى هذه التصنيفات والنظريات ، كذلك فان تصنيفا يقسم الوقائع الى بسيطة ومركبة أو الى خاصة وعامة هوفى رأيى خاطيء •

هذه التحديدات تقليدية متصلة بطابع العبارة لا بطابع الواقع موضوع البحث • فليست الواقعة هى البسيطة ، بل نحن نهتم بتبسيطها (بتيسير السرد ، يجعل الموقف

عن قصد أكثر تعقدا ، بحذف التفاصيل غير المهمة من السياق الخ) ، وليست الواقعة هى الجزئية (فماذا تكون لو كانت « كلمة » ؟) ، بل نحن نهتم بتأكيد جانب واحد دون غيره من المشكلة الخ ...

هذه المشكلة : هل الطابع الجزئى أو الكلى ، البسيط أو المركب ، توصف به الوقائع التاريخية نفسها (بمعنى الأحداث التاريخية) ، أم العبارات المتعلقة بهذه الوقائع ؟ هذه المشكلة تسلمنا رأسا الى المعنى الرابع الذى يفهم من سؤال « ما الواقعة التاريخية ؟ » ، والسؤال هذه المرة يخفى المشكلة التالية : هل « الواقعة التاريخية » تعنى حدثا من أحداث التاريخ ، أى حلقة فى سلسلة « الأعمال التى تمت » ، أم أنها تعنى رواية متعلقة بالتاريخ ، أى عنصرا فى « تواريخ الأعمال التى تمت » .. أم أن هناك بديلا آخر غير هذين .

ان عبارة « الواقعة التاريخية » يمكن ــ نظريا ــ أن تعنى أيا من هذين على السواء . فأشياع المثالية بالطبع على يقين راسخ من أنهم دائما يتناولون هنا واقعة روحية ، أما أنصار المادية فيؤكدون الطابع الموضوعى للواقعة التاريخية (الأعمال التى تمت) . وهذا الخلاف يطوى فى ثناياه معانى نظرية ومثودولوجية مهمة . لذلك يحسن بنا أن نقف هنا هنيهة ، ولو لهذا السبب دون غيره .

فلنعد مرة أخرى الى مقال بيكر الذى يتخذ فى هذه الحالة موقفا مثاليا فى غير مواربة دعما للحاضرية . يقول :

« ما الواقعة التاريخية اذن ؟ معاذ الله أن أحاول تعريف هذا الشىء الخداع غير المحسوس ! ولكنى أقول هذا مؤقتا : ان المؤرخ يستطيع أن يهتم بكل ما يتصل بحياة الانسان فى الماضى ، ممثلا فى كل فعل أو حدث ، فى كل انفعال صدر عن الناس وكل فكرة أعربوا عنها ، صادقة أو كاذبة . انه يستطيع بالطبع أن يهتم بحدث من هذا النوع ، غير أنه لا يستطيع الاتصال المباشر بهذا الحدث ، لأن الحدث نفسه قد زال . أما ما يستطيع الاتصال المباشر به فهو بيان متعلق بهذا الحدث . أى أنه ــ فى انجاز ــ ليس معنيا بالحدث ، بل ببيان يؤكد وقوع الحدث . فنحن حين نتعمق حقا الى الوقائع الصلبة نجد المؤرخ دائما معنيا بتأكيد أن شيئا ما قد حدث حقا . ولذلك فلا بد أن نميز بين الحدث العابر الذى يزول وبين التأكيد المتعلق بهذا الحدث ، التأكيد الذى يبقى . وهذا التأكيد على الحدث هو ــ من جميع النواحى العملية ــ ما يشكل لنا الواقعة التاريخية ، واذا كان الأمر كذلك فالواقعة التاريخية اذن ليست حدثا ماضيا ، بل هى رمز قادر على احياء هذا الحدث فى خيالنا . والرمز لايمكن وصفه طبعا بأنه « صلب » و « بارد » ، ومن الخطر أن يقال عن الحدث نفسه انه صادق أوكاذب . وخير ما يقال فى الرمز انه مناسب أو غير مناسب » .

نقلت هذه الفقرة الطويلة لأنها تعرض بغاية الوضوح والدقة المفهوم المثالى للواقعة التاريخية ، ومن ثم تسهم بمادة عينية للمناقشة والجدل .

ويمكن اجمال حجج بيكر فيما يلى :

(أ) الواقعة التاريخية بيان عن حدث ما .

(ب) انها كذلك لأن المؤرخ يتصل اتصالا مباشرا ببيان عن الحدث ، لأن الحدث نفســـه قد زال .

(جـ) اذن فالواقعة التاريخية ليست الحدث نفسه ، انما هى رمز يستطيع أن يبعث فى خيالنا صورة الحدث .

(د) بناء عليه فليس فى وسعنا أن نصف الوقائع التاريخية بأنها « صلبة » ، ولا حتى بأنها صحيحة أو كاذبة ، ولكن مادمنا نتحدث عن الرموز ففى الامكان أن نقول انها مناسبة أو غير مناسبة .

وأهم نقط هذا الحجاج بالطبع هى (ب) و (جـ) ، وبهما نبدأ . أصحيح القول بأننا لانستطيع رؤية الأحداث الماضيه مباشرة لأنها انقضت ، فان ما نتصل به اتصالا مباشرا ليس الا بيانات عن هذه الأحداث ، أو آراء فيها ؟ أيا كان الأمر فلابد من أن نلاحظ أن هذا ــ على نقيض ما يوحى به الظاهر ــ لا يتعلق بالوقائعالتاريخية فحسب، اذ الواقع أننا انما نتناول كل المعرفة التى لاتولد فى اللحظة الراهنة ، وبمـــا أن « اللحظة » تصور مثالى ، ونحن معنيون دائما بعمليات يستغرق حدوثها فترة من الزمن ، اذن فهذا يتعلق حرفيا بجميع معارفنا . وعلى ذلك فنحن نجد أنفسنا فى مواجهة اعلان لايمان ، اعلان مثالى بحت، ومثالى على نحو ذاتى متميز فىحالتنا هذه . على أن هذه ليست سوى ملاحظة عابرة ، وما هى بالحجة ضد نظرية بيكر ، فما هى حججنا اذن ؟

لنبدأ بهذه الكلمة التى نلقاها فى حجاج بيكر ، كلمة « مباشرة » التى تبدو بريئة فى الظاهر .

أصحيح أننا حين نقول ان قيصر عبر الروبيكون فى ٤٩ ق.م . لانرى مباشرة قيصر عابرا الروبيكون ، وانما نتخيل ذلك فقط ؟ صحيح ما فى ذلك ريب . فقيصر لايعبر الروبيكون فى اللحظة التى نتكلم فيها ، وان أحدا من الناس لايزعم هذا ، ولو وجد انسان يود أن يعيش هذا العبور « مباشرة » لوجب أن يوضع فى مستشفى لمرضى العقول . والواقع ان هذا لا أهمية له على الاطلاق ان كنا معنيين بموضوعية معرفتنا ، أى أن أردنا أن نعرف هل ما نتحدث عنه يتطابق مع حدث وقع فعلا . ذلك أن المشكلة التى نحن بصددها هى مشكلة « موضوعية المعرفة » ، لا التلاعب والتحايل بلفظ « مباشـــرة » .

ولكى نحـــدد موضوعنا تحديدا أفضـــل نتـــرك مؤقتا الواقعة التاريخية التى أثيرت فى عبارة عبور قيصر الروبيكون ، ونأخذ عبارة ــ كيفما اتفق ــ من الحيـــاة

اليومية . فنحن نقول مثلا « قابلت فلانا أمس فى الطريق » ، وصدق هذه العبارة لاأدعمه أنا وفلان هذا فحسب ، ولكن يدعمه كذلك عدة أصدقاء حضروا المقابلة ، كما تثبته صورة فوتوغرافية التقطها أحدهم لحظة اللقاء . هنا يهب كارل بيكر ويقول : « انكم لستم معنيين مباشرة بواقعة هذا اللقاء ، لأن الحدث أصبح من احداث الماضى ، أما ما أنتم معنيون به مباشرة فليس سوى عبارة تؤكد أن هذا اللقاء تم ، واذن فالواقعة ليست لقاءكما الفعلى ، بل مجرد التأكيد ، أى رمز اللقاء » . ولو أننا سمعنا هـذا القول فى حياتنا اليومية لاكتفينا بالقول أن المتكلم يخرج عن الموضوع ، ولحدجناه بنظرة عطف ورثاء . اما ان كنا نمارس الفلسفة ، أو نتناول الأشـياء بالتأمل وراء النظرى ، فاننا لانستطيع أن نسلك مسلكا فى الحياة اليومية . ليس فى وسعنا فى هذه الحالة الاكتفاء بالقول لأنفسنا ان المتكلم يخرج عن الموضوع ، بل يجب أن نأتى بالحجج ونثبت موطن الخطأ فى حجة خصمنا . وهنا يكمن ـ الى حد كبير ـ ماتتطلبه ممارسة الفلسفة من حذق ، وما يكتنف طريقها من مصاعب .

تعلمنا التجارب أننا اذا واجهنا عبارات متناقضة (وعبارة خصمنا الكريم تشكل تناقضا مميزا بمجرد نقلها من الحيز التاريخى الى حيز الحياة اليومية) وجب ان نبحث عن مصدر الخطأ المنطقى فى خطأ لفظى ، ينجم عادة عن لبس فى المصطلحات . فاذا نظرنا فى اقوال بيكر التى تهمنا اتجهت شبهاتنا ولامحالة أول ماتتجـه الى كلمة « مباشرة » .

يقول بيكر « لسنا معنيين مباشرة بواقعة عبور قيصر نهر الروبيكون ، انما نحن على العكس معنيون بعبارة أو ببيان حول هذه الواقعة » . ولو نقلنا هذه الحجة الى نطاق الأحداث اليومية لقلنا قياسا على ذلك : « لسنا معنيين بواقعة لقاء فلان بفلان أمس ، انما نحن على العكس معنيون ببيان حول هذه الواقعة » . فما الذى يحدث حين يذكر بيكر مرتين ، ويذكرها بتشديد ، هذه الكلمة « السرية » ، كلمة « مباشرة » ، ما المعنى المقبول لها ؟ وما النتائج الفلسفية لهذا المعنى ؟

ان مصطلح « مباشرة » مرتبط بمشكلة قديمة جدا ، يعرفها الفلاسفة جيدا ، أحدثت رجة كبيرة فى تاريخ الفلسفة ، ففى مفهوم معين لهذا المصطلح لايمكننا أن ندرك حسا أو نعرف أى شىء مباشرة : لا أحداث الماضى (وهذا واضح) ، ولا حتى الأحداث أو الأشياء أو الظواهر التى ندركها حسا ونعرفها الآن فى لحظة ادراكها . فهذه الشجرة ، التى ادركها فى هذه اللحظة بعينها ، موجودة خارجى ، موضوعيا (مالم تفض بى مثاليتى المتطرفة الى أن انكر حتى هذا) ، وكل ما أفعله هو أننى أجمع مشاعر مدركة ، ومن ثم فانا لا أعرف هذه الشجرة « مباشرة » (اذا استعملنا هذا اللفظ بمعنى نوعى) . فماذا نقول اذن فى المجال المعرفة المعقدة التى لايمكن أن تتضـمن ادراك موضوع الدراسة بالحواس ، بل ادراك آثاره فقط (فى مجال الميكروفيزياء مثلا) ؟ لو أن المرء عالج المسألة من هذه الزاوية كما يفعل بيكر ومدرسته لما عرف « مباشرة » سوى ماجربه ، ومن ثم تكون وجهة النظر الوحيدة المقبولة المعقولة هى وجهة نظر

المثالية المحايثة (المثالية الواقعة immanent idealism) . ولن يدهش هذا الذين يعرفون تاريخ الوضعية وأوهام المحايثة وتقلباتها ، التى مردها بالضبط هذه الطريقة فى التفكير . ومن ناحية أخرى نستطيع أن نرى مرة أخرى تأييد النظرية القائلة بأن كل من يضطلع بالتأملات الفلسفية (وكل ضروب التأمل وراء النظرى فلسفية) يجب أن يعرف تاريخ الفلسفة ، والا تعرض للخطر الذى أشار اليه انجلز ، خطر الارتداد دون وعى الى أسوأ الفلسفات قاطبة ، وهى الفلسفة الانتقائية أو التلفيقية eclectic

ولكن لنعد الى مصطلح « مباشرة » الذى نحن بصدده ، اذ لابد من تحديد معناه مادمنا نعلق عليه هذه الأهمية الكبرى فى عملية التدليل ، ولكن بيكر لايفعل هذا ، ويسلم نفسه فريسة للبس الذى ينطوى عليه اللفظ . فهو حين يقول « اننا لانستطيع أن نعرف حدثا تاريخيا « مباشرة » لأن هذا الحدث قد مضى » لايسعنا الا أن نؤمن على قوله . وهذا يتضمن على النقيض من ذلك أن الحدث معروف لنا بطريقة غير مباشرة . على اننا نعرف مباشرة مصادر معينة ، وكذلك النتاج المادى لعمليات معينة ، محفوظة الى يومنا هذا . هنا يبادر كارل بيكر بالرد بأن ما نتناوله مباشرة ليس الا تأكيدات ، أو احكاما ، أعنى عناصر مستقاة من العقل ، وان نسبت الى الأحداث موضوع البحث . وهذا خطأ ، لا من وجهة نظر الوقائع وحسب (فانه من العسير حقا أن يفكر المرء فى هرم خوفو ، أو فى نسخة من الماجنا كارتا ثبتت صحتها ، على أنهما مدركان بالعقل فقط) ، بل كذلك من وجهة النظر الشكلية . فمعنى لفظ « مباشرة » الثانى هذا مختلف عن معنى سابقه ، وواضح أننا هنا أمام زلة منطقية نجمت عما فى الاصطلاح من لبس . ففى الحالة الأولى حين نقول « مباشرة » نعنى ادراكنا الحسى للشىء أو الحدث موضوع البحث ، أعنى هل نحن ندركه بملاحظتنا الشخصية ، لا بوساطة مراقبين آخرين (من المعاصرين لنا أو ممن عاشوا فى فترة سبقتنا وتركوا روايات مكتوبة) ، أو بمساعدة آثار مادية (كمصادر الحدث ، أو منتجاته ، أو آثاره التى يمكن ملاحظتها بصرف النظر عن الحدث نفسه) . أما فى الحالة الثانية فان لفظ « مباشرة » يفهم منه ضمنا ضرورة الاجابة عن هذه المشكلة الفلسفية « ما الذى تتضمنه المعرفة ؟ » ، أعنى بايجاز ـ ذلك الخلاف بين المادية المحايثة (الواقعية) والمثالية . والمعنى الذى يخلعه بيكر على لفظ « مباشرة » فى هذه الحالة ـ كما نبهنا ـ مأخوذ من المثالية المحايثة . وهذا ـ اذا تكلمنا فلسفيا ـ ليس بالمعنى المستغرب البعيد الاحتمال جدا ، اذ أن بحوثا فقهية كتبت بغرض واحد ، هو أننا لانعطى مباشرة ، لا أشياء العالم الواقعى فحسب ، ولا المدركات الحسية أيضا . وموطن الخطأ فى الواقع هو أن بيكر قد خلط بين هاتين المشكلتين المتميزتين رغم ما بينهما من علاقة الى حدما ، فخرج من هذه الملاحظة العادية ـ وهى أننا لايمكن أن نكون شهود عيان لأحداث مضت ـ بنتيجة هى أننا لانعطى « مباشرة » الا تأكيدات عن هذه الأحداث . وهذا ـ منطقيا ـ ليس الا « استنباطا خلفيا non sequitur » لا شك فيه ، ومن الواضح أن مصادر الأحداث الماضية ومنتجاتها المادية وما الى ذلك تعطى لنا « مباشرة » (بالمعنى الأول للمصطلح » . فلاذا جادل الفيلسوف المحايث فى هذا فلا شك أنه لا يفكر فى الوقائع

التاريخية ، بل فى صورة عامة للمعالم . وهذا يطرح مشكلة أخرى ، ويجب عدم الخلط بين هذين الشيئين ، مما يزيد فى أهمية الحذر من أن نستنتج من أحدهما نتائج تخص الآخر ، لمجرد أننا فى الحالتين نستعمل لفظا واحدا ملتبسا هو لفظ « مباشرة » .

على ان الأمر لا يمكن قصره على اللبس اللفظى والزلل المنطقى فحسب . فالادراك الحسى المباشر ، ومن تم المعرفة (بالمعنى الأول للفظ « مباشرة ») ، يزودانا أيضا بـ « فتشات » . فأى فرق بالنسبة للمعرفه التاريخية (أو أى معرفه آخرى) ان كانت من عمل ذات واحدة ، وأكثر من ذلك عمل اشتراك بصرى فى جميع العمليات والاحداث موضوع البحث ؟ لا فرق على الاطلاق . ومثل هذا الفرض لا معنى له ، ولو طبق حرفيا لهدد بالقضاء على المعرفة الانسانية جملة . فما من أحد فى ميدان العلم فى وضع يتيح له أن يدرك بحسه ويعرف كل شىء بنفسه ، أن يكون شاهد عيان لكل شىء . ومادام ، حسب تعريفنا ، مشاركة بين ذوات كثيرة ، فان هذا الفرض مستحيل، كما أنه عديم الجدوى . ومثل هذه الفكرة البعيدة لاتخطر الا لفيلسوف ، لابل فيلسوف فى تفكيره شطط وغلو كبيران ، لأنه لابد أن يكون من أصحاب المثالية الذاتية مع انحراف شديد نحو « الأناوحدية Solipsism»

اذن فمـا جوابنا لسؤال بيكر عن الواقعة التاريخية ؟ ان الواقعة التاريخية عنصر ، شظية من « الأشياء التى تمت » ، وبعبارة أخرى حدث موضوعى من أحداث الماضى (وادخالنا لفظ « الماضى » ليس الا من قبيل الحذلقة ، لأننا مادمنا لانتكلم على المستقبل فان كل الأحداث التى نستطيع الكلام عليها هى فعلا فى الماضى) ، والطابع المباشر أو غير المباشر للمعرفة التاريخية ، شأن درجة دقتها الخ ... هى مشاكل من نوع آخر ، ولا دخل لها فى تعريف الواقعة التاريخية . ومن جهة أخرى فان حديثا حول الأحداث التاريخية يمكن أن يصبح هو نفسه واقعة تاريخية اذا كان قد لعب دورا تاريخيا من أى نوع ، أى اذا كان قد أثر فى مجرى التاريخ . ولكن من الخطأ اعتبار لفظ «الواقعة التاريخية» والادراك الروحى لتأكيد متعلق بواقعة تاريخية أمرا واحدا ، وهذا على أى حال مناقض للمعنى المسلم به لهذا الاصطلاح ، وهو ناشىء عن وجهة نظر فلسفية تطبق دون حق تطبيقا عاما كأنما هى احدى المسلمات ، على أن من بين نظريات بيكر نظرية واحدة مقبولة ، وان كان قبولها لدواع مختلفة تماما عن تلك التى يقدمها . فنحن لانستطيع أن نقول عن واقعة تاريخية انها صادقة أو كاذبة ، فهذا الوصف يصدق على الأحكام الصادرة على الواقع ، لا على الواقع نفسه . كذلك يقول بيكر أن الواقعة التاريخية لايمكن وصفها بأنها « خام raw» (وفى عبارة بيكر باردة ، صلبة)، وهذا صحيح ، ولكن لأسباب غير التى ذكرها (فهو يقول ان « الواقعة التاريخية » رمز ، وان كل ما يمكن أن يقال فى الرمز هو انه مناسب أو غير مناسب) .

وهذا يؤدى بطبيعة الحال الى المفهوم الخامس لسؤال « ما الواقعة التاريخية ؟»، وهو مفهوم مكمل للسؤال الخاص ببناء الواقعة التاريخية (أى هل هى بسيطة أم مركبة) ، ولكنه متميز فى أنه يدخل ميـدان المعـرفة الروحية (الغنوصيولوجيا

(gnoseology) ، فهل الواقعة التاريخية « خام » (دون ملحق ذاتى لها) أم هى نتيجة لتأثير المؤرخ ، وعن طريقه نتيجة لنظرية مقررة سلفا ؟

ولقد سبق أن قلنا انه فى ميدان العلوم الطبيعية طرح مذهب المواضعة مشكلات مماثلة فى تاريخ أسبق بكثير ، وأجاب عن السؤال بالنفى • وأصحاب هذا المذهب الذين أنكروا وجود الوقائع « الخام » — لاسيما لوروا — لجأوا الى الدور الايجابى للغه (مجموعة المفاهيم)، والتعريف ، والنظرية ، لتقرير ما يسمى بالواقعة العلمية ، فهى اذن — بمعنى معين — كانت تمثل فى نظرهم انجازا ، أو نتيجة ، لا نقطة انطلاق • والمنظر (باحث النظريات) فى ميدان العلوم التاريخية يبدأ بهذه الكيفية وان اختلفت نقطة الانطلاق العينية لتفكيره •

لنرجع الى بيكر مرة أخرى ، لأن ملاحظات هذا المؤلف عن موضـــوعية المعرفة التاريخية ، لاسيما موضوعية الوقائع التاريخية ، وثيقة الصلة بالموضوع وطريقة رغم النزعة المثالية التى يمثلها الكاتب • وهو يبدأ من نقد للمثل الذى يقول به الوضعيون، وهو عرض التاريخ كما حدث فعلا ، عرضا يسمح باحتمال أن المؤرخ لا يستطيع أن يدخل شيئا فى هذه المعرفة « خارج لوحة عقله الحساسة التى تسجل عليها الوقائع الموضوعية دلالاتها الخاصة ، لأنه لايمكن مساءلتها » (ص ١٢٩ من النص المذكور) • ويؤكد بيكر — معارضا فى ذلك الثقات من أمثال رانكى وفوستل دو كولانج وغيرهما — أن المؤرخ ، فضلا عن عجزه عن النفوذ الى صميم جميع الوقائع التى يتخيرها ، لايستطيع حتى ارتياد واحدة منها ارتيادا كاملا ، أى أنه لايستطيع عرض شظية واحدة من الواقع بكل تفاصيلها وتشعباتها • فلامناص لنا — حتى فى ميدان الواقعة التاريخية — من الاختيار من بين جميع الوثائق المتكدسة .

ولكن المؤرخ لا يستطيع فى أى حالة أن يدلى بتأكيدات حين يصف جميع وقائع وافكار ومشاعر كل من شارك فى حدث وصف فى جملته • وهذا هو السبب فى أنه لابد للمؤرخ من أن يختار فروضا معينة عن الحدث ، ويربطها معا بطريقة ما ، رافضا غيرها من الفروض والطرق الممكنة للربط بينها • وقد يجد مؤرخ نفسه مضطرا لاختيار مختلف عن اختيار مؤرخ آخر ، فلم ؟ ما الذى يحمل مؤرخا ما على أن يختار من بين كل التأكيدات الصحيحة الممكنة عن الموقف المعين بعضا منها بعينه دون غيره ؟ ان هــذا يحدده الهدف الذى فى ذهنه • واذن فالهدف الذى يسعى اليه سيقرر المعنى الدقيق الذى سيستخلصه من الحدث ، فالحدث نفسه ، والوقائع نفسها ، لا تقول شيئا ، ولا تفرض دلالة • انما الذى يتكلم هو المؤرخ ، وهو الذى يفرض الدلالة (١) •

هنا نجد مسألة الأحداث التاريخية والوقائع ، وانعكاسها فى العقل فى صورة أحكام متصلة بها ، مطروحة بطريقة وافية • وهذا يناقض تأكيدات بيكر السابقة ،

---

(1) Carl Becker

التى لاترى فى واقعة ما الا رمزا بعث فى خيالنا من جديد : الحدث ، أو الواقعة ، مكونة ماضيا موضوعيا ، مرتبطا بالواقع بخيوط لاحصر لها • ونحن حين نحيط علما بهذه الشظية من الواقع ، أى بموضوعية الواقعة التاريخية المعينة ، لابد أن نختار من بين الروابط التى لاحصر لها ، ونأخذ منها تلك التى تهمنا فى سياق اطار العلاقات المعين (وذلك من وجهة نظر المؤرخ هو الهدف من هذا التمرين) • وهكذا نضفى دلالة محددة على الواقعة التاريخية ، فنرفعها بذلك الى مستوى الواقعة العلمية •

والذى يهمنا فى هذه الحجة هو أنها تبرز دور المؤرخ بوصفه ذاتا يأخذ المعرفة داخل الوعى التاريخى • وهو باختصار دور تافه فى ضوء هذا التحليل للعلاقة المعرفية والدور الايجابى الذى يتخذه الذات الذى يأخذ المعرفة • ولكنا حين نطبق هـــذه الصيغة ، التى هى صيغة عامة ، على رقعة محددة من البحث ، على واقعة تاريخية ، فان قوتها المساعدة على الكشف تزداد وضوحا •

علينا أن نفرق بعناية بين « واقعة » ينظر اليها كحدث تاريخى موضـــوعى و « واقعة » ينظر اليها كانعكاس فى عقل الانسان ، فى المعرفة • ذلك أن الواقعة التاريخية الموضوعية لها وضع وجودى مقرر ، وهذا بالغ الأهمية بالنسبة للمدرك العقلى فى جملته • ولكن لها أيضا وضعا غنوصيولوجيا • والواقعة التاريخية من هذه الناحية تهمنا ، لا بوصفها « شيئا فى ذاته » حسب مذهب كانت ، ولكن بوصفها « شيئا لنا » • ومن وجهة النظر هذه بالضبط نتكلم عن الوقائع الخام ، والوقائـــع المفسرة نظريا ، كذلك من وجهة النظر هذه يجب أن نقول بصفة قاطعة أن « الوقائع الخام » خالية من المعنى خلو « الشىء فى ذاته » ، خالية خلو أى « لا أدرية » متطرفة . ذلك لأن التأكيد الوجودى بأن شيئا ــ والشىء هنا هو الواقعة التاريخية ــ له وجود موضوعى ، مساو لرفض دعاوى الذاتية التى تزعم أن ذلك الشىء نتاج الذات المفكر ، فالشىء ــ طبقا لهذا التأكيد ــ مسألة . وأما التأكيد الغنوصيولوجى الخاص «ابصورة» ذلك « الشىء » فى عقل الانسان فمسألة أخرى • وهذا هو الذى نتحدث عنه حين نبحث امكان عرض « الوقائع الخام » • فاذا سلمنا بأننا معنيون بعملية الوعى ، والعلاقة المعرفية ، فان الذات المفكر ودوره الايجابى فى المعرفة يظهر على المسرح طبقا لتعريفنا . وهذا يضعف من فرض « الواقعة الخام » ، ويتهمه بالتناقض فى الموضوع •

اذن فليس هناك « وقائع خام » • وهى تعريفا لايمكن أن توجد • فالوقائع التى تعنينا فى العلم ، بل على وجه أعم فى ميدان المعرفة ، تحمل معها على الدوام طابع الذات ، وليس فى هذا القول ذاتية • فالبدء بما نعرف أنه واقعة ، والمضى فى اثباتها باختيار لمكوناتها ، وبتحديدها زمانا ومكانا ومادة ، ثم الانتهاء بتفسيرها ، كل هذا يصاحبه دائما تدخل العامل الذاتى ، وتدخل مختلف آثاره المكيفة ، وأهم من ذلك كله تدخل النظرية التى تجرى على أساسها هذه العملية •

ودعونا نكرر مرة أخرى أن هذا الاختيار للمادة التي تثبت الواقعة التاريخية لا يأتى اعتباطا ، فالروابط التى نتكلم عليها ، والتأثيرات المتبادلة الخ ، لها وجـود موضوعى ، (والمؤرخ لا ينتجها ولا يكتشفها • والتصور الذى يزعم هذا تصور مثالى، وتصور لا يمكن اقامة الدليل عليه على أى حال ، اذا افترضنا الوضع الوجودى الذى سلمنا به للواقعة التاريخية) • انها جزء من الواقع الموضوعى ، جزء من التاريخ • والذى يسهم به المؤرخ فى اثبات واقعة ماهو الاختيار الذى يقوم به من بين وثائق موجودة موضوعيا ، من بين الروابط والتأثيرات المتبادلة ، التى تظهر موضوعيا الخ . وتختلف معايير الاختيار باختلاف النظرية الكامنة وراءها ، شأنها فى ذلك شـــأن المعيار المحدد للبناء الداخلى لكل وثيقة • ولا مناص من استناد هذا العمل الى نظرية ما ، اذا افترضنا مقدما أن الاختيار ليس وليد الصدفة ، لأننا فى هذه الحالة سنقترب من غير المعقول • وواضح أن هذه الاختيارات المتنوعة تأتى بنتائج متنوعة نظيرها •

اذن فنحن ــ على عكس ما يزعمه الرأى الوضعى المتحيز ــ لانجمع الوقائع فى داخلنا أولا ، « دون فروض مسبقة » ، ثم ندعها تتحدث عن نفسها ، متجنبين تعليقات المؤرخ التى تشوه الواقع • نقول على عكس هذا (وهذا أمر يمكن فهمه على أساس تحليل عمليات الفهم ، وعلماء التاريخ أشد الآن وعيا بهذا منهم فى أى وقت مضى) ، ان ادراك الوقائع حسيا وصياغتها هما نتيجة لتأثير النظرية ، فالنظرية تسبق اثبات الوقائع ، وان كانت من ناحية أخرى مبنية عليها •

وهكذا بلغنا نهاية تحليلنا للمعانى الكامنة وراء هذا السؤال : « ما الواقعة التاريخية ؟ » ، فقد عددنا ، أو على الأقل تصورنا ، خمسة موضوعات قابلة للبحث حول هذه الأسئلة ، وهى :

أولا : حين نتساءل « ما الواقعة التاريخية ؟ » فاننا نسأل أنفسنا ما الذى يمكن أن يشكل هذه الواقعة ؟ والجواب : أنها قد تعنى بالأحداث ، بالاجراءات ، وبآثارها فى الحياة الاجتماعية •

ثانيا : من الضرورى أن نعـرف أى هـذه الوقائع جـديرة بأن توصـف بأنها « تاريخية » • والجواب : ان معيار التمييز يمكن أن يكون مدى ارتباط الوقائع المعينة بالتطور الاجتماعى ، وهذا يقتضى اقامة أطار للعلاقات .

ثالثا : السؤال هنا يتعلق ببنـاء الوقائع التاريخية ، وعلى الأخص بصـحة التمييز بين الوقائع البسيطة والمركبة •

رابعا : نسأل أنفسنا : ما الوضـــع الوجـودى بوصف التاريخيـة ؟ أهى قطعة من انجازات الماضى ، أم حديث حولها ؟

خامسا : نسأل ما وضع الواقعة التاريخيـة من الناحية الغنوصيولوجية ؟ هل الوقائع التاريخية وقائع « خام » ، أم أنها نتيجة تدخل النظرية ؟

ومراجعة هذه المفاهيم الخمسة للسؤال عن الواقعة التاريخية تتيح لنا استعراض عدد كبير من المشكلات • بقي الآن أن نواجه المشكلة التى ظهرت أثناء تحليل المفهوم الأخير (الخامس) للسؤال ، أى أن نحيط بمشكلة اختيار المؤرخ للوثائق • ولكن اذا كنا أثناء تحليل المفهوم الأخير للسؤال قد ركزنا اهتمامنا على اختيار الوثائق المثبتة للواقعة التاريخية فمازالت هناك عقبة تعترضنا ، هى مشكلة اختيار الوقائع التاريخية من بين العدد الكثير من الأحداث ، ومن الاجراءات وآثارها ، مما لم يدخله المؤرخ فى حسابه ، لأنه لم يسلكها فى باب الوقائع التاريخية ، هذه المشكلة مرت بنا أثناء المناقشة ، ولكن نظرا الى أهميتها لابد لنا من العودة اليها ، تنسيقا للتحليل •

ومما يجعل التمييز بين الوقائع أوجب أن مشـكلة اختيار الوقائع التاريخية ــ اذا نظرنا اليها على هذا النحو ــ وثيقة الارتباط بموضوع ناقشناه من قبل ، موضوع اثبات الوقائع التاريخية عن طريق الاختيار بين الوثائق التاريخية • والواقع أننا حين نواجه هذا الاختيار بقصد اثبـات الواقعة التاريخية ، ومن ثم اثباتها من وجهة النظر الغنوصيولوجية ان شئت ، فاننا ننتقل بحكم الحالة الى اختيار الأحداث ذات الأهمية التاريخية (الوقائع التاريخية) من بين أحداث جمة لا أهمية تاريخية لها • ولكن العكس كذلك صحيح ، فنحن حين نشرع فى اختيار الوقائع التاريخية من بين الأحداث التاريخية (ونحن نفعل هذا دائما ، ونقيم بحثنا على نظرية أو فرض بشكل اطار العلاقات هنا) ، فاننا فى الوقت نفسـه نحـدد معنى اختيار الوثائق التاريخية المثبتة للواقعة المعنية •

ولو أننا كمؤرخين وجدنا أنفسنا وجها لوجه أمام الماضى ، دون أن يكون لدينا مفهوم أو نظرية أو فرض ما ، يصوغه المفكر عن عمد ، أو تفرضه الضرورة العملية تلقائيا كما هى الحال اليومية ، لأخذتنا الحيرة ازاء الفوضى التى تخلقها كثرة الأحداث وكثرة نتائجها على السواء ، ذلك أن كلا منها يستطيع أن يدعى لنفسه دور الواقعة التاريخية ، وفى هذه الحالة فاننا اذا استعملنا عبارة « الواقعة التاريخية » لانعنى بموضوعية الحدث (فكل حدث ــ بهذا المعنى ــ واقعة تاريخية) ، بل نعنى بحدث موضوعى محدد على نحو ما ، خصوصا لأننا ــ بحكم تأثيره فى غيره من الأحداث ، وتأثيره تبعا لذلك فى التاريخ ــ نقر بأهميته حين نرقى به الى مستوى الواقعة التاريخية ، أو الى مستوى ذلك النوع من الوقائع التى يتناولها علم التاريخ • وهذا بدوره يبرز الطابع المعقد للواقعة التاريخية ، التى هى قطعة من التاريخ ، من حيث وضعها الوجودى ، قطعة من الواقع الموضوعى ، ولكنها من حيث وضعها الغنوصيولوجى نتاج التأثـــير المتبادل والخاص بين الذات والموضوع ، كما هو الشأن فى جميع الحالات الأخرى للعلاقة الادراكية • فالواقعة التاريخية ــ مع بقائها عنصرا قويا من الواقع الموضوعى، موجودا خارج كل العقول التى تحيط علما به ، ومستقبلا عنها ــ هى فى الوقت نفسه نتاج خاص يخضع تكوينه لتأثير المؤرخ ، اذن فليس صحيحا أن الوقائع التاريخية تنبثق تلقائيا من جسم أحداث أخرى أو عمليات تاريخية أخرى ، لأنها مهمة ، ولأن

أثرها بعيد (كما يزعم الوضعيون) ، ولا هو صحيح أن على المؤرخ أن يقتصر على ملاحظتها وعرضها وكأن فى أهميتها ما يكفى من الافصاح عن ذاتها • فهذا الموقف المغالى فى التبسيط ضعيف لايثبت للهجوم ، اذا تذكرنا ما أحرزته النظريات المعاصرة المتعلقة بالمعرفة من تقدم • فما من حدث يستطيع أن « ينتزع » نفسه بنفسه من بين غيره من الأحداث •ومآله أن يظل حدثا لا أكثر بين أحداث كثيرة • و « أهمية » حدث ما ، و « وثوق صلته » بالموضوع ، انما هو « حكم قيمة » يقتضى وجود طرفين لاطرف واحد فحسب : الموضوع الذى يجرى تقويمه ، والذات الذى يقومه • وهذا واضح لكل من يفهم كنه العلاقة الادراكية ، والدور الذى يلعبه فيها العامل الذاتى الوثيق الصلة من باب أولى بعلاقة التقويم • كذلك لاينبغى أن يدهش أحد ، ولا هو مما يتعارض مع المادية فى نظرية المعرفة ، ولا مع نظرية الانعكاس (على الأقل فى أحد تفسيراتها المقررة) ، اذا قلنا أن الواقعة نتيجة ، أو حصيلة لنظرية ما . لأنه أساس نظرية ما يشرع المؤرخ فى أن يختار من بين العمليات والأحداث التاريخية ذلك الحدث الذى سيرفعه الى مستوى الواقعة التاريخية . وهذا سبب الخلاف الملحوظ بين المؤرخين حول هذه النقطة (أى أن اختيارهم لايلقى التسليم الاجماعى) ، كما أنه السبب فى أن واقعة ما قد ترفع الى مقام الواقعة التاريخية فى وقت آخر ، أو بواسطة مؤرخين ينتمون لمدرسة أخرى ، وان تكن هذه النقطة قد تغاضى عنها الناس فى أوقات معينة أو لم تلق اهتماما بين مؤرخى مدرسة بعينها باعتبارها خلوا من الأهمية التاريخية •

فلم هذا ؟ للاجابة عن هذا السؤال ننقل هنا رأى المؤرخ « أ. هـ. كار E.H. Carr » الذى يشرفه أنه قال فى الموضوع ما يجب أن يقال بروح الفكاهة البريطانية الصادقة:

« حين تقرأ كتابا فى التاريخ تنصت دائما الى همسه . فان لم تسمع شيئا فاما أنك أصم ، واما أن مؤرخك ممل غاية الاملال • فالوقائع فى حقيقتها ليست كالسمك على لوحة السماك • انما هى أشبه بالسمك السابح فى محيط هائل ، ومحيط بعيد المنال أحيانا ، وما يصيده المؤرخ منه متوقف الى حد ما على الصدفة ، ولكنه يتوقف قبل كل شىء على ذلك القسم من المحيط الذى اختار الصيد فيه ، كما يتوقف على الطعم الذى يستخدمه فى الصيد ، وهذان العاملان يحددهما بالطبع نوع السمك الذى ينوى صيده • ويمكن القول على العموم ان المؤرخ سيجد نوع الوقائع التى ينشدها • فالتاريخ معناه التفسير • صحيح أننى لو قلبت السير جورج كلارك على رأسه وقلت ان التاريخ « نواة صلبة من التفسير يحيط بها لب من الوقائع المشكوك فيها لكان قولى بلا ريب متحيزا وخطأ ، ولكن لعله لايكون أشد تحيزا وخطأ من دعوى الكاتب الأصلية » (1) .

ثم نجد المؤرخ العظيم « لوسيان فيفر » يكمل تعقيب « كار » على نحو ما ، اذ يقول :

(1) E.H. Carr, What is History ? London 1962, p. 18.

« أسمعت ما يقوله شيوخنا ، المرة بعد المرة ، من أنه « ليس للمؤرخ الحق في اختيار الوقائع ؟ فبأى حق ؟ وباسم أى مبدأ ؟ ان الاختيار في رأيهم جريمة ضد « الواقع » ، واذن فهو ضد « الحقيقة » . وهم يرددون هذه الفكرة نفسها دائما : مكعبات صغيرة من الفسيفساء مميزة ومتناسقة في دقة ، ومصقولة صقلا جيدا ، ثم أطاح زلزال بالفسيفساء ، وردمت المكعبات تحت التراب ، فلنخرجها من الردم ، ولنحذر أول ما نحذر أن ننسى مكعبا واحدا منها . لنجمعها كلها . لنتجنب الاختيار .. كان معلمونا يقولون هذا ، وكأن التاريخ — لمجرد الصدفة التى دمرت أثرا وحمت آخر (ولنضرب صفحا مؤقتا عن أعمال الانسان) — ليس اختيارا . وماذا لو لم يكن هناك غير هذه الصدف ؟ ان التاريخ اختيار ما في ذلك ريب ، أهو اختيار جزافى ؟ لا . أهو مسبق التصور ؟ نعم .

ان أى عمل علمى محال بدون نظرية أساسية ، بدون نظرية مسبقة التصور . فالنظرية بوصفها منشأ للروح التى تشبع حاجتنا للفهم هى تجربة العلم نفسه . والمؤرخ الذى يأبى التسليم بأن الواقعة بشرية ، والذى يعلن الخضوع التام لهذه الوقائع ، كأنها ليست من صنعه ، وكأنها ليست من اختياره ، في المقام الأول ، بكل معانى كلمة « اختيار » (وهى لا يمكن الا أن تكون من اختياره) ، هذا المؤرخ ليس الا صانعا ، قد يكون صانعا ممتازا ، ولكنه ليس مؤرخا (١) .

هذه العبارة التى نقلتها طويلة بعض الشىء ، ولكنها رغم ذلك جديرة بالنقل . ذلك لأن صاحبيها من المؤرخين الخلص ، ثم انهما يستعملان الحجج وراء النظرية التى يعرفان مضامينها . قد نميل الى القول بآراء المؤرخين الوضعيين حين نسمع كلامهم ، ولكننا لانملك الا أن نؤمن على رأى المجددين . وقصارانا أن نود اضافة تحذيرات معينة عن الأخطار التى نتعرض لها اذا تجاوزنا بعض الحدود ونحن نسير في خطاهم . ولكن هذا لايبطل مايقولون بحال .

والواقع أن السؤال الذى يخلقه هذا الوضع هو المعضلة التالية ، وهى موضوعية بلا ريب : ذلك أن حياة الناس يتخللها عدد لاحصر له من الأحـــداث والعمليات ومنتجاتها ، مما يمكن أن يكون وقائع تاريخية ، وأكثر من هذا أن بينها ارتباطات ، ارتباطات واعتمادات وتأثيرات متبادلة ، وأقل القليل من هذا العدد — دون غيره — هو الذى يوصف بالواقعة التاريخية ، فلم هذا ؟

والجواب الواضح أن هذا القليل هو الوقائع المهمة التى لعبت دورا خاصا في تطور المجتمع . وهذا جواب لاغبار عليه . ولكن أنى لنا أن نعرف هذا ؟ فالوقائع فى ذاتها لا تحمل سمات مميزة . وأكثر من ذلك كما أسلفنا أن آراء المؤرخين لهـــذا تتضارب أحيانا تضاربا ملحوظا ، وخاصة حين يكتبون في فترات مختلفة . والارتقاء

---

(١) Lucien Febvre, Combats pour l'histoire Paris 1953, p. 116-117.

بوقائع لم يركز عليها فيما مضى الى مستوى الوقائع التاريخية ، واختفاء وقائع اعتبرت من قبل ذات أهمية ثم أنزلت بعد ذلك الى مستوى الأحداث اليومية الخالية من المعنى التاريخي ، كل هذا من شأنه أن يزيدنا تشككا فوق تشكك •

من اذن يقرر أن لبعض الوقائع دون غيرها الحق في أن توصف بأنها تاريخية ؟ انه بالطبع الرجل الذى يدرس العملية التاريخية ، هو المؤرخ • ولكن هذا ليس عملا فرديا تحكميا من أعمال الفردية أو الذاتية الخالصة ، فمثل هذا العمل لذة فرد ، ذلك أن مؤرخنا نفسه « نتاج » اجتماعى (١) ، انه هو نفسه خلق بروح نظرية ما ، وهو يبسط هذه النظرية ويفسرها • واختيار الوقائع يعتمد على الخلق التاريخى الذى يقوم به المؤرخ للنظرية التى يعلنها ، مادامت واقعة اجتماعية • وهكذا بالضبط تسبق النظرية الوقائع •

اذن فالتفسير هو الذى يرفع الواقعة البسيطة الى مستوى الواقعة التاريخية ، أو هو الذى يهبط بها عن هذا المستوى • وهنا نسأل كما سأل لوسيان فيفر : جزافا ؟ لا بالطبع • أولا لأن الأحداث نفسها ، وسيرها ، الخ ، لها طابع موضوعى ، فهى ليست نتاج عقل المؤرخ • ثانيا لأن يدى المؤرخ مغلولتان بالنظرية التى يلتزم بها • انه الشخص المدرك لتوجيهاتها أكثر منه السيد المتصرف كيف يشاء • ثالثا لانه على اى حال يتكيف اجتماعيا وفق مصالح زمانه ، ووفق طبقته الاجتماعية ، الخ ، ولكنه يدخل مع هذا المعدل الاجتماعى عاملا ذاتيا فى الوعى التاريخى • واذا كانت هذه الآراء تبدو جريئة فلنقل مرة أخرى انها ليست بحال خطيئة تقترف ضد المادية ، ولا ضد نظرية الانعكاس • ثم اننا نحقق كسبا هو التوافق مع النظرية المعاصرة للمعرفة ومع النتائج التى أحرزتها علوم خاصة كاللغويات وعلم النفس وسيسيولوجية المعرفة الخ ، التى تبلغ آفاق ميدان معرفة الانسان وعملية الوعى بفضل واقعية أبحاثها •

اذن فالمؤرخ هو الذى يتولى الاختيار ، حتى اذا لم يكن الاختيار جزافيا • فهو ينتقى الوثائق التى تتضافر لتؤلف اتجاه الواقعة (وبهذا المعنى يثبتها) • وهو ينتقى الوقائع التاريخية من بين وقائع الحياة العادية • لذلك كان من الانصاف أن نؤكد أنه ليس هناك شىء اسمه الواقعة « الخام » ، فالوقائع الخام هى أيضا نتيجة اجتهاد نظرى ، لا بل ان رفعها الى مرتبة الواقعة التاريخية ليس نقطة ابتداء ، بل هو وصول ، أو نتيجة • فحين نتناول عبارة سهلة مثل هذه : « وقعت معركة جرونفالد

---

(١) فى كثير من النقد الذى كتب عن مؤلفاتى فى الانثروبولوجيا نعى على الكتاب استعمال هذا اللفظ الكريه « نتاج » فى هذا السياق . ولاريب فى انه ينتمى الى مصطلحات الماركسية ، ولكن اللفظ « يلبس » تماما الفكرة التى قصد أن يعبر عنها ، ولست أجد خيرا منه . وكل الملمين بالماركسية سيرون أنه لا محل للظن بأننى استعمل اللفظ استعمالا عاما أو مبسطا تبسيطا مفرطا ، فالمشكلة اذن مشكلة فى الظاهر فقط .

فى سنة ١٤١٠ » ، وهى عبارة صحيحة أو غير صحيحة حسب اتفاق القول مع الواقع أو عدم اتفاقه ، فان الاعتراف بها واقعة تاريخية انما هو نتيجة لتطبيق نسق للعلاقات (التاريخ السياسى) ونظرية مقررة • واذا كانت وقائع ما (كواقعة معركة جرونفالد) وقائع تاريخية معترفا بها من زاوية أى نسق نظرى فذلك لايغير من الأمر شيئا ، فهى مازالت وقائع غير « خام » ، تاريخية فى ذاتها ، دون أن يجرى الاختيار المناسب لها ، ابتداء من التفكير النظرى المحدد •

وفى ضوء التعليقات التى أسلفنا ، نستطيع أن نختم أفكارنا بفقرة بليغة ننقلها عن « أ • هـ • كار » :

« ان المؤرخ والواقعة التاريخية كليهما ضرورى للآخر . فالمؤرخ بدون وقائعه محروم من الجذور ، محروم من القيمة • والوقائع بدون مؤرخها ميتة لامعنى لها • لذلك كان أول جواب لى عن السؤال « ما التاريخ ؟ » هو أنه عملية تفاعل مستمرة بين المؤرخ ووقائعه ، وحوار لاينتهى ، حوار ماض وحاضر (١) » •

الكاتب : آدم شاف

ولد فى لفوف عام ١٩١٣ . يشغل الآن منصب مدير معهد الفلسفة وعلم الاجتماع بالاكاديمية القومية للعلوم . وكان استاذا للفلسفة بجامعة لودز عام ١٩٤٥ ، وبجامعة وارسو عام ١٩٤٨ . وتتركز مؤلفاته العلمية حول السيمانتيقا ، والانثربولوجيا الفلسفية ، ومنهجية العلوم الاجتماعية .

المترجم : الاستاذ فؤاد اندراوس

دبلوم المعلمين العليا ١٩٣٠ . دبلوم معهد الدراسات العليا للآثار المصرية ١٩٣٨ . دبلوم معهد الدراسات العليا للمعلمين ١٩٤٧ . مؤلف « ادباء الانجليز المعاصرون » ١٩٤٧ ، الانجلو المصرية .

مترجم : رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان (الجمعية المصرية للدراسات التاريخية) ـ آبريل : حياة شلى لاندريه موروا (الانجلو المصرية) . طريق البشر لصموئيل بطلر . تاريخ الاشتراكية البريطانية لماكس بير جوءان . بونابرت فى مصر لكرستوفر هيرولد ، التاريخ الاجتماعى للثورة الفرنسية لينورمان هامبسن . الوالد والولد لادموند جوس .

(1) E.H. Carr



بقلم • روبرت تكر

ترجمة • محمد علي أبو درة

المقـال في كلمات

نهاية التاريخ في نظر ماركس ، الذى اقام فلسفته على أن التاريخ عملية تطور ذاتى للجنس البشرى ، لاتعنى انتهاء العالم ، ولكنها تعنى نهاية عملية تطور البشرية ببلوغها سن الرشد أو درجة الكمال • ويرى ماركس أن عملية تحقيق الذات أو بلوغ الانسانية الكاملة لايمكن أن يحلها فرد بنفســـه ، بل لابد أن تحل فى اطار تحقيق الذات للجنس البشرى بأسره • وقد تناول ماركس مشكلة العلاقة بين الذات والمادة من زاوية جمالية تتسم بالصبغة الانسانية • وطريقه الى ذلك السيطرة على القوى الانتاجية ، وتوفير حرية الانتاج بطريقة انسانية • ان الانسان ، فى نظر ماركس ، ستتجلى له فى النهاية بشاعة غريزة التملك ، ويصل فى نهاية المطاف الى التخلى حتى عن الشيوعية نفســـها ، التى هى تملك جماعى ، وذلك لتحل محلها النزعة الانسانية الايجابية ، التى هى الهدف النهائى للتطور البشرى • ويهدف ماركس الى ايجاد يوتوبيا عالمية •

ويأخذ عليه بعض النقاد أنه لم يذكر الا النزر اليسير عن الأوضاع فى مجتمع ما بعد التاريخ ، ولكن ماركس انما وضع مفهومات عامة ترك لسير الحوادث تفسيرها• فمفهومه عن ((الغاء العمل الكادح)) فى مجتمع ما بعد التاريخ قد اخذ يتحقق فعلا باستخدام التسيير الذاتى واطلاق القوى الانتاجية للذرة من عقالها • ولكن هل يتحقق

تفاؤل ماركس فى وجود يوتوبيا عالمية ؟ او قد تسير البشرية ، فى هذا العصر المليء بالمآسى والمخاوف والشـــكوك ، الى نهاية محتومة ؟ ان الخلاف بين ماركس وغيره من زعماء اللاعنف ، امثال غاندى ومارتن لوثر ، هو تصوره ان القوة والعنف الثوريين هما وسيلة خلق مجتمع جديد تسوده الرفاهية ، ومبالغته فى تقدير التطور المـادى والتكنولوجى ٠

ان الاحتفال بالذكرى الخمسين بعد المائة لمولد كارل ماركس (١٨١٨ ــ ١٨٨٣) مناسبة أكثر ملاءمة لاحياء ذكراه ، مما كان يمكن أن يكون الاحتفال بمرور مائة عام على مولده ٠ ففى مايو ١٩١٨ كان العالم مشغولا بالحرب ، ولم يكن يعنى كثيرا بمثل هذه الاحتفالات ٠ وكانت جماعة من الثائرين الماركسيين قد قبضت آنذاك على زمام الحكم فى روسيا ، ولكن مستقبل تلك الثورة الروســـية ، وغيرها من مثيلاتها ، كان اذذاك غامضا ٠ كما أن بعض كتابات كارل ماركس الفلسفية الأولى ، التى قدر لها أن تزيد الى حد كبير من فهمنا لأصل الماركسية ومعناها ، كانت لاتزال محفوظة بـين الأضابير ، غير معروفة الا لنفر قليل جـــدا ٠ ولم يكن قد آن الأوان بعد لتحديد أهمية ماركس التاريخية ٠ أما الآن فالظروف مواتية بشكل أفضـــل لتحديد هذه الأهميـــة ٠

ان أهم ما نشر منذ ذلك الحين من كتابات ماركس الأولى هى مخطوطات ١٨٤٤ ، الاقتصادية والفلسفية ، ففيها دون ماركس الشاب أول عرض مذهبى متماســـك للماركسية ، فى مفاهيم مشتقة الى حـــد كبير من الفلسفة الألمانية بعد « عمانويل كانت » (١٧٢٤ ــ ١٨٠٤) ، وعلى الأخص فلسفة هيجل ، بعد أن كشف ماركس عن الغموض الذى يكتنف المعنى « الخبيء » فى « فينومينولوجيا الروح » لهيجل ، صاغ فكرته الخاصة عن التاريخ باعتباره عملية تطور ذاتى للجنس البشرى ، تبلغ ذروتها فى الشيوعية ٠ والانسان ، طبقا لهذا المفهوم ، منتج أساسا ، والانتاج المادى هو الشكل الأول لنشاطه الانتاجى ، لأن الصناعة هى تجسيد القوى الانتاجية لدى الجنس البشرى ، أو مظهرها الخارجى ٠ وعلى مدارج تاريخ الانسان الذى يصفه ماركس بأنه « تاريخ الانتاج » ينشأ حوله شيئا فشيئا عالم من الأشياء المنتجة أو المبتدعة ٠ وتغشى الطبيعة الأصلية أو تكسوها « طبيعة انسانية » من صنع الانسان، أو « طبيعة انتجها التاريخ » ٠ وقد آمن ماركس بأن هذه هى الصيغة الحقة أو العلمية

من خطاب ألقاه R. C. Tucker فى ندوة « كارل ماركس اليوم » التى اقامتها الشعبة الالمانية لليونســكو فى ترايير Trier فى ٥ مايو ١٩٦٨ ٠

التى يعاد بها عرض فكرة هيجل · ألم ير هيجل أن تاريخ العالم هو « تاريخ الانتاج» الذى ينتجه روح العالم ؟ ولكن الخطأ الذى وقع فيه هو احاطة العملية بالغموض ، وذلك اذا نظر الى النشاط الانتاجى على أنه نشاط « عقلى » أساسا · ولكى ينتقل المرء من الغموض الى الواقع ، ومن الفلسفة الى العلم ، فما عليه الا أن يقلب فكرة هيجل رأسا على عقب · فاذا فعل تبين له أن الصورة التى رسمها هيجل للروح التى تحلق عالما كانت مجرد صورة مشوهة رسمها فيلسوف لواقع التاريخ ، وهى أن الانسان ، الانسان الذى يعمل ، يخلق عبر القرون عالما فى أنشطة « مادية » منتجة · لذلك لم يكن ثمة مناص من أن يطلق ماركس على المذهب الهيجلى ، محورا على طريقته الخاصة، اسم « الفكرة المادية للتاريخ » ·

وجريا على منهج هيجل الأساسى صور ماركس فى مخطوطاته « تاريخ الانسان الانتاجى » على أنه كذلك تاريخ « الاغتراب » · فقد افترض أنه من طبيعة الانسان أن يكون « منتجا حرا واعيا » ، ولكنه ، أى الانسان ، لم يكن حتى ذلك الحين قادرا على الانطلاق فى التعبير عن نفسه فى نشاط انتاجى ، بل انساق الى الانتاج تحت ضغط الحاجة وبفعل الحرص ، الذى أدى به الى الرغبة فى الجمع والاقتناء ، ثم انتهى الى أن يكون فى البرجوازية الحديثة تكديسا لرأس المال ، ومن ثم كان نشاطه الانتاجى على الدوام قسرا لاطوعا ، أى أنه كان «عملا» أو «كدحا» · ولما كان الانسان حين يعمل قسرا يباعد بين نفسه وبين طبيعته البشرية ، فان العمل « عمل مغترب عنه » · ويصبح الهروب من « العمل المغترب » فى النهاية ممكنا من الوجهة المادية ، فى مرحلة التطور التكنولوجى الذى خلقته الصناعة الآلية الحديثة · أما وسيلة الهروب فهى استيلاء العمال ، عن طريق الثورة ، على القوى الانتاجية واخضاعها للسيطرة الجماعية · ولسوف يتيسر للانسان فى النهاية أن ينتج فى حرية بعد تملكه من جديد ، عن طريق الثورة ، لوسيلة الانتاج المادى هذه ، وهى التى تتمثل فى الصناعة · فالشيوعية عند ماركس لم تكن تعنى نظاما اقتصاديا جديدا ، بل كانت تعنى نهاية الاقتصاديات فى مجتمع يستطيع فيه الانسان ، وقد تحرر من الكدح ، أن يحقق طبيعته الخلاقة ، فى حياة يتمتع فيها بوقت فراغ ، ومن ثم كان تعريفه للشيوعية بأنها « علو الانسان على الاغتراب الذاتى » ·. ورأى أنها الوضع الحقيقى المستقبل الذى كان قد صوره هيجل بشكل غامض فى ختام « الفينومينولوجيا » ، حيث تعود الروح ، بعد أن بلغت المعرفة المطلقة ،الى نفسها من المكان الذى كانت قد أقصيت اليه ، « مؤتلفة كل الائتلاف مع نفسها فى آخريتها » ·

تلك فى عبارة موجزة هي الماركسية كما بسطها ماركس فى الأصل ، هذه النظرة الى التاريخ هى التى فصلها ماركس وانجلز فى كتاباتهما الكثيرة فيما بعد · وطبيعى أنه قد لحقها الكثير من الاضافة والتهذيب ، ولكن فكر ماركس ، مثله فى ذلك مثل معظم المفكرين ذوى الأصالة العظيمة ، قد تميز أساسا بالاستمرار · صحيح أن

المصطلحات الفنية قد تغيرت بعض الشيء في كتاباته التي جاءت بعد ذلك ، ولكن النظرة العامة الى العالم لم تتغير ٠ والحق ان كتاب « رأس المسال » الذى نشر فى ١٨٦٧ لم يكن الا الشكل الذى انجز ونشر به آخر الأمر ، للكتاب الذى كان قد شرع فى تأليفه فى مخطوطاته عام ١٨٤٤ ٠

ومن ثم فنحن الآن أقدر على أن نرى فى ماركس (بوضوح أكثر بكثير مما كان يمكن أن يتيسر لأى انسان قبل نصف قرن) وريثا وممثلا للعصر الذهبى للفلسفة الألمانية ، الذى بدأ بالفيلسوف كانت وتابع سيره مع شيلنج وفشته وهيجل الى من جاء بعدهم من فلاسفة متباينين ٠ ولست اقصد أنه ينبغى علينا أن ننظر اليه كفيلسوف فحسب ، أو أن ننظر الى الماركسية نفسها كظاهرة فلسفية لاغير ، لأن ماركس كانت له رسالة تنبؤية ، فان التعاليم التى استمدها من الفلسفة ، ورأى فيها علما ، استقبلت على نطاق واسع على أنها دين جديد ، وأصبحت هى الأيديولوجية الحزبية للحركات التى تهدف الى الثورة ، وهى فى قرننا العشرين هذا تمثل ايديولوجية نظم الحكم الثورية التى تعمل باسم ماركس ٠ على أننى لست هنا معنيا « بالماركسية » بوصفها أيديولوجية حزبية ، ولكن بماركس بوصفه مفكرا ، وبالماركسية كما فهمها هو ٠ وسؤالى هو « ماهى أهم رسالة له الينا الآن ؟» ٠ أما الجواب الذى أود أن أقدمه فهو أن ذلك الجانب من فكر ماركس الذى ستظل أهميته باقية الى حد يفوق كل ماعداه ، والذى يتصل بعصرنا الحاضر أوثق اتصال ، هو الجانب المثالى « اليوتوبى » ، وهو الجزء الذى يمكن أن نسميه اليوم « مستقبلية » ماركس (futurology) ٠ ولكى أوضح هذه الفكرة أود أن أتوسع قليلا فى تحديد موقفه ٠

اذا سألنا أنفسنا : من أى نوع من الفلاسفة كان ماركس ؟ كان من السهل أن نجيب بأنه كان أحد فلاسفة التاريخ ٠ لأن مختلف محاولاته لوضع تعريف عام لموقفه كانت كلها أقوالا متعلقة بالمسار التاريخى ، ولكننا اذا وصفنا ماركس بأنه أحد فلاسفة التاريخ فاننا نعبر بذلك عن حقيقة تكاد تكون سطحية ، لأن التاريخ فى حد ذاته لم يكن الهدف الأول للنظريات التى صاغها ، بل كان هدفه الأول هو الانسان بوصفه جنسا أو « جنسا ـ كائنا » ٠ ونظرية الانسان هى الأصل الذى نشأت منه نظرية ماركس فى التاريخ ٠ فهو يعرف التاريخ بأنه عملية نمو الجنس البشرى ٠ وقد عبر عن ذلك تعبيرا محكما فى مخطوطات ١٨٤٤ فقال : « وكما أن كل الأشياء الطبيعية يجب أن تصير » ، فان الانسان كذلك له عملية الصيرورة الخاصة به « وهى التاريخ » ٠

هذه الطريقة فى التفكير تضمنت معنى مهما هو أن للتاريخ نهاية ، لابمعنى انتهاء العالم ، لأن ماركس افترض ، فى براءة من لم يعرف العصر النووى بعد ، أن الانسان وعالمه سوف يبقيان لوقت غير محدود ، ان لم يكن الى الأبد ، فنهاية التاريخ فى رأيه تعنى نهاية عملية نمو البشرية ، أى بلوغها سن الرشد ٠ ذلك أنه على الرغم

من أن الحياة وتقلباتها ستستمر ، ومع التسليم بأن بعض أنواع التغيير قد تظل تحدث ، فان ويلات النمو عبر التاريخ ، والصراع الطويل الذى عاناه الجنس لكى « يصير » ـ وهو صراع طبقى فى معظمه ـ سوف ينتهى آخر الأمر • ان مراحل تطور التاريخ الذى ربط ماركس بينها وبين أساليب انتاج متعـاقبة ـ من كدح الرقيق فى العصور القديمة ، الى عمل عبيد الأرض فى العصر الاقطاعى ، الى العمل المأجور فى عصر البرجوازية ـ هذه المراحل سوف يخلفها أسلوب جديد بشكل جذرى من النشاط الانتاجى ، والى جانب هذا الأسلوب من النشاط الانتاجى يسير شكل جديد تماما من الجماعة البشرية غير الخاضـــعة للانحلال والانهيار الديالكتيكيين اللذين أدركا ، بالضرورة ، كل الأشكال التاريخية للمجتمع • وعلى هدى من هذه الفكرة الرئيسية الراسخة فى ذهن ماركس ذكر فى مقدمة كتابه « نقد الاقتصاد السياسى » أن التكوين الاجتماعى البرجوازى القائم لابد أن يضع نهاية لمرحلة « ماقبل التاريخ » بالنسبة للمجتمع الانسانى ، وكأنه أراد أن يقول ، بعبارة أخرى ، ان الثورة الكبرى القادمة سوف نبشر باستهلال طور « مابعد التاريخ » بالنسبة لوجود الانســـان على هذا الكوكب •

وكان ماركس يعنى ، مع أعظم درجة من الجدية الفلسفية ، ما أورده من فكرة « بلوغ الجنس البشرى سن الرشد » • ذلك لأن التاريخ ، بوصفه « عملية صيرورة» طال عليها الأمد ، سوف يخلى الطريق فى مرحلة ما بعد التاريخ « لكينونة » الانسان، أى نضجه ، على الصعيدين الجماعى والفردى • ولا يمكن أن يحدث هذا الا آخر الأمر فقط ، ولو أن الأحوال المادية التى تمهد لهذه « الكينونة » كانت آخذة فى النمو على طول الطريق • ذلك لأن الاغتراب لازم البشرية فى كل دورة تاريخية لعملية النمو ، والحق أنه بلغ الدرك الأسفل فى عصر البرجوازية ، حين أصبح الانسان ، بعد أن تحول الى عامل كادح بائس فى المصانع (بروليتاريا) ، أى حين أصبح هذا الانسان كائنا منحطا مجردا من شخصيته الانسانية تجردا تاما • ومن ثم لم يـــكن تحقيق الذات أو بلوغ الانسانية الكاملة ، فى نظر ماركس ، مشكلة يمكن أن يحلها أى انسان فرد بنفسه ، بل لايمكن حلها الا فى اطار تحقيق الذات للجنس بأسره فى نهايـــة التاريخ • فقبل هذا لن يتسنى لأى فرد أن يبلغ الانسانية الكاملة ، أما بعده فسوف يتسنى بلوغها للجميع •

وقد ألمعنا من قبل الى المفهوم المعيارى للانسان ، وهو المفهوم المتضمن فى هذه النظرية • فقد نظر الى الانسان على أنه كائن منتج انتاجا تلقائيا ، يحتاج الى التعبير عن نفسه فى عديد من المجالات أو الاتجاهات ، نزاع فى كل أنشطته الانتاجية ، بما فيها الانتاج المادى ، الى تكوين أشياء « وفقا لقوانين الجمال » • وكانت هذه الفكرة هى التى تحكم رؤية ماركس لمستقبل ما بعد التاريخ • فلن يقتصر الأمر على تحرير آلات الصناعة لتنتج سلعا تسد حاجات جميع الناس ، بل ان الانسان نفسه سوف يتحرر من دافع الولع بالكسب أو دوام التفكير المقلق فى الثروة ، وهى هواجس كانت

سببا فى اغترابه ، وبالتالى يتحرر من الطغيان المزدوج ، طغيان الحاجة والتخصص، ومن سجنه طوال عمره فى حياة كادحه ، ومن مختلف أشكال الاسترقاق فى تقسيم العمل الملازمه لهذه الحياة • هذا الاسلوب الجديد جدة جذريه فى الانتاج الذى يأتى فيما بعد التاريخ سوف يشكل قوة الخلق والابداع الطليقة فى الافراد الذين ينتجون فى ارتباط تعاونى •

ولم تقتصر نظرة ماركس الى الانسان على أنه (فى جوهره) كائن مولع بالفنون، بل انه كذلك تصور علاقته فيما بعد التاريخ « بالطبيعة الانســـانيه » على أسس فنيه • وعلى النقيض من معظم الفلاسفه الغربيين الحديثين الذين نظروا الى العلاقه بين الذات والموضوع من خلال مشكله المعرفه قبل كل شىء ، نجد ان ماركس لم يكد يتبين هذه المشكله • فبعد أن ترجم هيجل على أسس مادية رأى الاشياء خـــارج الانسان على أنها تجميعات كثيرة للنشاط الانتاجى للانسان ، متحدا بالمادة الخام التى جادت بها الأرض لتصنع منها الاشياء ، ومن ثم لم يكن هـــذا الوجود ، وقابلية المعرفة فى الحقيقة ، محل بحث • فموقف الشك الديكارتى لا يلائم ماركس • وكيف يلائم شخصا لم تكن حاجته الملحة تتجه الى اثبات وجود العالم ، بل كانت تتجه الى تفسير السبب الذى بدا هذا العالم من اجله قبيحا ظالما الى حد لا يحتمل ، ويجب أن يغيره • وهكذا تناول ماركس مشكلة العلاقة بين الذات والموضوع من زاوية جمالية •

وينطوى تحقيق الجنس البشرى لذاته على صبغ العالم الذى خلقه الانســـان بالصبغة الانسانية ، أى « بعث الطبيعة » بعد مماتها • ولما كانت دنيا الأشياء التى صنعتها يد الانســـان والآلة قد انتجت بفعل الـــكدح المتسم بالغربة النفسية ، وتم الاستحواذ عليها كأنها ملكية خاصة ، فانها واجهت صانعيها عبر التاريخ على أنها « دنيا مغتربة » ، ولسوف تقضى نهاية التاريخ على هذا الاغتراب والجفوة • وبعـــد أن تتحقق للانسان السيطرة على قواه الانتاجية ، وحرية الانتاج بطريقة انسانية ، فانه يستطيع أن يعيد تشكيل طبيعته « المشيأة » وفقا لقوانين الجمال • ومن ثم فان الأشياء التى هى من انتاجه لابد أن تؤدى به الى تأكيد ذاته ، بدلا من أن تواجهـــه كنقائص لذاته وككائنات غريبة عنه معادية له • وبالاضافة الى تطوير ملكاته الانتاجية فى سائر المجالات سوف ينمى الانسان قدرته على اســـتيعاب الخبرة الجمالية ، ولسوف تتطهر حواسه الخمس من « جشع حاسة الاقتناء » التى كانت تشدها دوما فى الماضى والتى منعت الانسان من ادراك وتقدير الطابع الجمالى الكامن فى الأشياء الخارجة عنه • وبناء على ذلك خلص ماركس فى مخطوطاته ١٨٤٤ الى أن انسان مابعد التاريخ سوف يتخلى فى آخر الأمر حتى عن الشيوعية نفسها ، لأن الشيوعية أيضا ضرب من التملك والملكية : هو الملكية الجماعية ، ذلك أن الانسان سوف يسمو حتى فوق هذا الشكل من الملكية ، عندما تتحقق له انســـانيته كاملة • ومن ثم تقرأ فى مخطوطات ماركس أن « الشيوعية هى الشكل الضرورى والمبدأ الفعال للمستقبل القريب ، ولكن الشيوعية ليست فى ذاتها هدف التطور البشرى ، وليست هى شكل

المجتمع الانسانى ، فالنزعة الانسانية الايجابية ـ لا الشيوعية فى ذاتها ـ كانت هى هدف التطور البشرى » ٠

ان الفكرة القائلة ان للتاريخ نهاية ليست شيئا ابتدعه ماركس ، بل هى فى جوهرها فكرة أخروية تمتد جذورها الى الأديان ، وكل ما فى الأمر أن الحياة الآخرة قد أنزلت الى أرضنا فى المؤلفات « اليوتوبية » فى عصر النهضة وعصر التنوير فى القرن الثامن عشر ، وعند اشتراكية بداية القرن التاسع عشر ٠ وقد شاد ماركس فكرته على هذه الأسس كما شادها على الفلسفة الألمانية ٠ ولكن لما كانت الفلسفة الهيجلية هى الزاوية التى كتب منها ، ولما كان قد أضفى على هذه الفكرة فيضا من عبقريته ، فانه استطاع أن يخلق واحدة من أقوى اليوتوبيات الحديثة ارتباطا بالعصر ٠

وفى رأيى أن ما يجعل مستقبلية ماركس Futurology وثيقة الصلة بالمشاكل الراهنة هو أولا ذلك النطاق العالمى الذى تتسم به فكرته عن مستقبل الانسان فيما بعد التاريخ ٠ فماركس لم يكن من مصلحى المجتمعات المحلية ، ولم يكن لديه ولع بتلك المشروعات اليوتوبية الضيقة النطاق ، التى تعود فائدتها على مجتمعات محلية ، والتى تجرى كما قال ذات مرة ساخرا « من وراء ظهر المجتمع » ، فهذا فى نظره « يوتوبية » بمعنى منحط ٠ ولما كان فيلسوفا هيجلى التكوين ، لايرى فى التاريخ معنى الا باعتباره تاريخ العالم ، فقد أصر منذ بدأ يصوغ نظرياته على أن هدف التطور الانسانى لا يمكن الا أن يكون وضعا جديدا للعالم ٠ ومن ثم تصور « يوتوبيا » تنتظم العالم كله ، يكتمل فيها نضج الانسان ، وتسيطر فى النهاية على قواه وعلى الطبيعة ، ويمارس ضبطا واعيا لعملية الحياة الجماعية ، ويعيش حياة خلاقة منطلقة فى مجتمع انسانى عالمى ٠

ولقد وجه بعضهم النقد الى ماركس لأنه لم يذكر الا النزر اليسير عن البناءات الجماعية والترتيبات التنظيمية فى مجتمع ما بعد التاريخ ٠ ولكن قد اتضح فى التحليل النهائى أن هؤلاء النقاد قد أخطأوا وجهتهم ، فضلا عن أن ثمة ما يقال فى الناحية الأخرى على أى حال ٠ فهناك عدد متزايد من المشاكل الانسانية قد أصبحت، أو هى فى طريقها الى أن تصبح ، بسرعة ، مشاكل عالمية ، لاتقبل الحل فى نطاق جماعة واحدة أو بلد واحد أو اقليم واحد ، مهما كان كبيرا ، على الرغم من أن الحلول قد « تبدأ » ، ولابد أن « تبدأ » ، على الصعيد المحلى فى الغالب ٠ ولا يندرج فى هذا الباب الحرب وسباق التسلح فحسب ، بل هناك أيضا الانفجار السكانى المتعذر وقفه ، والتخلف الاقتصادى ، والنقص فى الطعام ، والعنصرية ، وانكار حقوق الانسان وحرياته ، وتبديد الثروة المعدنية ، وتلويث التربة والماء والهواء ، الخ ٠ صحيح أنه

يمكن احراز بعض التقدم فى حل مثل هذه المشاكل فى الأمم والأقاليم ، ولكن الحلول الكافية لايمكن وجودها فى أى مجتمع محلى قومى أو أوربى أو اطلنطى أو شيوعى ، أو جماعة تشغل نصف الكرة الأرضية ، بل فى مجتمع انسانى عالمى • وأى محاولة جادة لرسم معالم « يوتوبيا » فى زماننا هذا يجب أن تدعو الى قيام دولة عالمية جديدة على نسق يوتوبيا ماركس •

كذلك نجد مستقبلية ماركس تقوم على تصورها المحدد الواقعى لأسلوب حياة الانسان فى المستقبل ، فان مفهومه عن « الغاء العمل الكادح » فى مجتمع ما بعد التاريخ استبق تطورات معينة راهنة تحدث اليوم نتيجة للثورة التكنولوجيه أكثر منها نتيجة لثورة البروليتاريا التى أنذر بها البيان الشيوعى ، ذلك لأن استخدام التيسير الذاتى (الاوتوميشن) واطلاق القوى الانتاجية للذرة من عقالها يفرضان مشكلة ، هى اعادة توجيه حياة الانسان توجيها عميقا من حياة تتركز على العمل الى لون آخر من الحياة • ومع التخلص من قدر كبير من العمل الاقتصادى قد تصبح مشكلة الحياة الطيبة أمرا لامناص منه لنسبة متزايدة من الجنس البشرى • فأى لون من العيش سوف يحل محل قدر كبير مما كان يسمى العمل من أجل القوت •

ان يوتوبيا ماركس الجمالية ، اى رؤيته لعالم ما بعد التاريخ الذى يتخذ فيه الوجود الانسانى طابع الاستمتاع الخلاق بوقت الفراغ والتعبير الفنى ، تمثل على الأقل جوابا واحدا يمكن تصوره • ولكن حيث الناس فى مجموعهم قد لايكون لديهم ذلك القدر من النزعة الفنية الذى نسبه هو الى الطبيعة البشرية ، وقد لايعتبرون أن الفراغ هو النعيم الكامل غير المنقوص ، كما ارتآه هو ، فاننا لانستطيع أن نأخذ اليوتوبيا التى جاء بها على أنها تعبير عما ليس منه بد • ولكنها تظل ذات قيمة باعتبارها استباقا لما هو ممكن ، والحق أن فكرته عن البيئة الكلية باعتبارها مجالا للنشاط الجمالى ، وعن « الطبيعة الانسانية » نفسها بوصفها العمل الفنى الأسمى للانسان ، هذه الفكرة تغدو ذات قيمة خاصة فى هذا العصر الذى شهد الكثير من اتلاف الطبيعة وتدمير الجمال الطبيعى وانتشار القبح فى المدن . ومن فى عصرنا هذا ممن يعيشون فى المدن الكبيرة يمكن أن يداخلهم الشك فى الحاجة الملحة الى ما سماه ماركس « البعث الحق للطبيعة » •

أخيرا ثمة مايمكن أن نسترشد ونهتدى به فى مفهوم ماركس الأساسى عن نمو الجنس البشرى وتدرج الانسان فى عملية نموه التاريخية الى مرحلة الرشد ، وليس معنى ذلك أنه مازال فى استطاعتنا أن نمضى فى الأخذ بفكرة نهاية التاريخ السعيدة بوصفها قضية مسلما بها ،فاننا ونحن نعيش فى الثلث الأخير من القرن العشرين ، ومن ورائنا أكبر المآسى ، وتنتظرنا أكبر الأخطار ، لانملك أن نتوقع المستقبل بروح ماركسية ، هى روح التفاؤل « التنبؤى » السعيد • ففى استطاعتنا أن نرى أن

الانسان قد لايحقق جماعة عالمية ، وأنه قد لايحقق السيطرة على قواه ، وأن عدد سكان العالم قد يستمر فى الانفجار ، وأن العنصرية والقومية قد تستمران فى الاستشراء ، وأن الحياة قد يتفاقم فيها الفقر فى مجتمع يتزايد ازدحامه بالسكان ، مجتمع يتسم بالقسر والاكراه ، ويخضع لنظام صارم ، لا يأبه بالفرد ، « وأن الطوفان الرجعى المزود بالأسلحة النووية قد يعنى نهاية الانسان فى الوقت الذى تتاح له فيه لأول مرة الفرصة ليصبح جنسا واحدا » • كما قال اريك هـ • أريكسون منذرا ومحذرا ، ولكن جسامة هذه المخاطر توحى بأنه بدون مثل هذا النضال الذى تحدث عنه ماركس لبلوغ النضج الانسانى فان القضية قد تصبح خاسرة • أريد أن أقول ان أقل ما يحتمل أن تتمخض عنه الأيام هو مستقبل يتخبط فيه الانسان كما كان يفعل الى الآن تقريبا ، ولا تبدى الحكومات فيه من اتساع الخيال والزعامة الأخلاقية أكثر مما كانت تفعل ، ويتابع فيه التاريخ سيرته •

ان الشرط الأساسى لتكيف الانسان تكيفا ناجحا ، بل حتى لبقائه ، قد يكون هو التغيير الجذرى ، وهو تغيير غير مطلوب فى التدابير التنظيمية التى يقوم بها الناس من أجل معاشهم ، قدرما هو مطلوب فى وعى الناس وموقفهم من غيرهم ومن أنفسهم، وفيما يستشعرون من روح المسئولية نحو الشعوب القاصية ونحو الأجيال المقبلة ، وفى أنماط مشاعرهم وشخصياتهم • وهذا معناه أن ازدياد النمو أمر جوهرى ، وأن الجنس قد يعانى الآن « أزمة نضج » • واذا كان الأمر كذلك فان أخطر جوانب الأزمة هو عجز الناس عامة عن ادراكها أو التنبيه اليها ، ونزوع معظمهم ، بل حتى قادة الأمم، الى افتراض أن الأمر لايستلزم تغييرا كبيرا ، وأن التوسع فى الروح الانسانية غير ضرورى ، وأننا نحن البشر الأغرار غير الناضجين قد كبرنا فعلا ، ومن ثم قد يكون ماركس على أوثق صلة بالموضوع حين يحدثنا بأن الأمر ليس كذلك ، وأن الجنس البشرى لايزال مشغولا بعملية « صيرورته » التاريخية ، ولم يحقق بعد تحقيقا كاملا « كينونته » انسانا •

ولابد ، فى ختام الحديث ، من القول بأن ماركس كان أقدر بكثير على فهم هذه الأساسيات ، وعلى تصور مستقبل انسانى غايته الانسانية ، منه على تحديد الوسائل لتحقيقه • فقد بالغ كثيرا فى تقدير التطور المادى والتكنولوجى كمطلب أساسى لنضج الانسان ، عجزا منه عن الاحاطة بالصعاب النفسية الضخمة ، ومايترتب عليها من دور دقيق تلعبه الزعامة والتعليم فى العملية • ولقد تصور خطأ أن القوة والعنف الثوريين يمكن أن يكونا وسيلة ، لا لتحقيق مجتمع جديد فحسب ، بل كذلك لتوفير الكائن البشرى الجديد الذى يعيش فى هذا المجتمع • وهكذا ترك للزعماء ، من أمثال غاندى ومارتن لوثركنج ، مهمة ارشاد الناس الى كيفية تغيير المجتمع دون عنف ، وذلك بتغيير أنفسهم • وأخيرا ، وكنتيجة لهذا ، رأى ماركس أن العملية الثورية ، عملية نضج الانسان ، يمكن أن تتم بسرعة كبيرة اذا كانت الظروف مواتية •

ولم يدرك أن نمو الجماعة ، مثل نمو الأفراد ، لابد أن يكون عملية طويلة الأمد ، يتخللها تحسن جزئى ، وتقدم بين الحين والحين ، ونكسات لا مناص منها ، ولا يأتى النجاح الا فى النهاية •

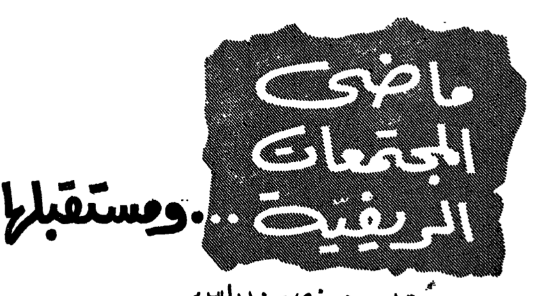
على أن ماركس لم يكن أول من نجح فى لفت أنظار الناس الى النعيم الموعود أكثر مما نجح فى هدايتهم الى الطريق الموصل اليه ، فتجلت عبقريته فى قدرته على استبعاد النهاية • وفى عصر أصبحت فيه الخطط « اليوتوبية » هى الواقعية الوحيدة ليس لنا الا أن نولى أكبر عناية لأفكار كبار أصحاب الرؤى فى تاريخنا ، ومن بينهم كارل ماركس •

الكاتب : روبرت تكر

أستاذ بكلية العلوم الاقتصادية ، ومدير برنامج الدراسات الروسية فى برنستن ، ومؤلف « الفلسفة والاسطورة » عند كارل ماركس » و « العقلية السياسية عند السوفيت»

المترجم : الاستاذ محمد على أبو درة

من كبار رجال وزارة التربية والتعليم السابقين ، وله نشاط ملحوظ فى المجال الثقافى .



بقلم • هنرى مندراس

ترجمة • د. سمير نعيم أحمد

المقـال فى كلمات

فى هذا المقال يتحدث الكاتب عن المجتمع الريفى التقليدى الذى يتسم بالاكتفاء الذاتى والتجانس الثقافى والتنوع الاجتماعى الذى كان أساس حياة اجتماعية تتسم بالحيوية والاشباع • وقد أضفى هذا التنوع على قرى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر الحيوية النادرة التى تناقض الملل والبلادة التى تخيم على الريف فى هذا العصر تناقضا تاما • وأدى النمو السكانى فى القرن التاسع عشر الى ارتفاع مفاجىء فى المهن غير الزراعية ، والى ارتفاع فى الهجرة الموسمية • وكانت هـــذه الهجرة فى جوهرها ذات طابع زراعى لسكان الجبال وصناعى لسكان السهول • وكان من أثر التطور الصناعى ان اخذ الحرفيون والعمال الزراعيون وصغار الملاك يهجرون القرية الى المصانع فى المدينة • وتختلف القرية الآن عن القرية القديمة ، اذ لم يبق فى القرية الآن سوى المزارعين الكبار والمتوسطين ، كما لم يعد بالقرية أى تنـــوع اجتماعى • واقتصر سكان الريف على المشتغلين بالزراعة ، لانتقال الفئات الاجتماعية الأخرى الى المناطق الحضرية ، مما أحدث تغيرا فى نطاق المجتمع الريفى • كما كان من نتائج التقدم التكنولوجى أن تحولت الزراعة الى الانتاج التسويقى ، وحل الاعتماد المتزايد على الأسواق الخارجية ــ المدن ــ محل الاكتفاء الذاتى التقليدى ، وأصبحت الزراعة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالصناعة •

اما قرية المستقبل فسوف تفقد خصائص ريفيتها ، اذ سيكون بناؤها حضريا ، ولن تكون قرية بالمعنى المفهوم ، بل سيكون هناك مجتمع ريفى قد يكون على هيئة مدينة صغيرة يسكنها مالا يزيد على ١٠٠٠٠ نسمة تحيط بهم مزارع وعزب زراعية . وقد يتجه هذا المجتمع صوب استعادة سمات القرية القديمة الأساسية .

تنشد المجتمعات الصناعية حضارة لم تجد لها بعد اطارا ثابتا من القيم الأخلاقية والأجتماعية ، ولا أشكالا محددة من الحياة الاجتماعية . وهذا هو السبب الذى من أجله مازالت القيم القروية وأساليب الحياة فى القرية ذات جاذبية انفعالية قوية واستثارة خاصة فى عالمنا الحضرى الصناعى . فما زال مجتمع القرية نموذجا اجتماعيا مثاليا بل مثلا أعلى . ولكم تود المجتمعات الصناعية أن يصبح لديها شىء مماثل لها فى مدنها الهائلة .

ان التحضر والتصنيع اللذين يطرآن على بلد ما يؤديان الى تعرض الجماعات الريفية فيها الى تغيرات بعيدة الأثر . فلم نعد الآن نجد فى أوربا الغربية ، الا فى حالات استثنائية نادرة ، مجتمعات قروية تربطها وشائج القربى والترابط وتسود بينها علاقات المواجهة المباشرة ، ويعرف فيها كل فرد جميع الأفراد الآخرين .

وسوف نحاول فى هذا المقال ، بعد وصفنا لنموذج الجماعة القروية التقليدية وللتغيرات التى تطرأ عليها اليوم ، أن نرسم صورة تصورية للمجتمع المحلى فى المستقبل، مع الاشارة بصفة اساسية الى الحالات الفرنسية التى درسناها .

المجتمع الريفى التقليدى

يتصف المجتمع القروى التقليدى بسمات ثلاث أساسية : الاكتفاء الذاتى ، والتجانس الثقافى ، والتنوع الاجتماعى .

ويشتمل الاكتفاء الذاتى على ثلاثة جوانب : جانب ديموجرافى (سكانى) ، وجانب اقتصادى ، وجانب اجتماعى . فالقرويون اذا ما تركوا وشأنهم لاتربطهم بالعالم الخارجى سوى علاقة ضئيلة ، وكل شخص فى القرية يعرف كل شخص آخر . ولا يرغب القرويون فى الزواج من خارج جماعتهم . صحيح أن الزواج الداخلى لم يكن



مطلقا فى أية قرية بمفردها ، ولكن يمكن اعتبار مجموعة ما من القرى ذات نظام زواج داخلى ٠

وقد ساير الاكتفاء الذاتى الديموجرافى دائما الاستقلال الاقتصادى المطلق ٠ فقد كانت المزرعة التقليدية للأسرة تكفى لاشباع الحاجات الأساسية ٠ وكان من الضرورى وجود قدر معين من التبادل ، ولكنه كان مقصورا على حدود القرية ، أو على أكثر تقدير على القرى المتجاورة ٠ وكانت مهن الحداد والحمال والسمكرى والنساج وغيرها من المهن التقليدية متوفرة بدرجة تكفى لاشباع احتياجات المزارع والعائلات المشتغلة بالزراعة ٠

وعندما كانت تلك الاحتياجات مشبعة كانت الاتصالات بالعالم الخارجى تتم فى أضيق الحدود ٠ وكان يكفى بيع جزء من المحصول لدفع الضرائب أو شراء الملح أو غيره من المنتجات التى تأتى من الخارج ٠ ولكن هذا البيع كان يتم على أساس الاكتفاء الذاتى ٠ فلم يكن القرويون ينتجون بغرض البيع ، ولكنهم كانوا يبيعون الفائض من انتاجهم ٠ وكانوا أحيانا عندما لم يكن يتوفر لديهم فائض من الانتاج يضيفون المحاصيل التجارية الى المحاصيل الاستهلاكية ، أو يتجه جزء من القوة العاملة للعمل الخارجى للحصول على أجر ٠

ونظرا لأن القرويين كانوا يعيشون فيما بينهم منعزلين عن العالم الخارجى بدرجة أو بأخرى فقد أصبح لهم أسلوب حياتهم الخاص بهم ، وأصبح لكل وحدة اقليمية صغيرة « ثقافتها » ، ويتضح هذا التفتيت للمجتمعات الريفية أكثر ما يتضح فى تعدد اللغات واللهجات التى هى نتاج كل ثقافة وأداتها ٠ وكثيرا ما كانت اللغة والكلمات وكيفية النطق تختلف بين اقليم وآخر وبين قرية وأخرى ٠ واتسع نطاق هذا التنوع ليشمل العادات الجماعية والأفكار والنظرة العامة الى العالم ٠

ولقد كان هذا الاكتفاء الذاتى الاجتماعى والحضارى يفترض اتفاقا عاما داخل المجموعة الاجتماعية ، فكان هناك اتفاق اجماعى فى المعتقدات ووجهات النظر والقيم الخلقية والسلوك ٠ واشتركت كل المجموعات والأفراد فى أسلوب الحياة هذا ، وكانوا على اتفاق حول ما هو خير وما هو شر ، وعندما كان الكاهن يلقى موعظته على الجماهير يوم الأحد كان يسمعه كل أبناء الدائرة الحاضرين حينذاك ، وكان يتحدث بلغة يفهمها الجميع أبتداء من صاحب الاقطاعية حتى الشحاذ ٠ صحيح أن المالك الاقطاعى الكبير كانت له أساليب تفكير ومعايير تختلف عن أساليب ومعايير مجموعة المزارعين ، ولكنه كان يشارك الفلاحين فى المشاعر الانفعالية الأساسية لمجرد أنه كان يتحدث اللهجة المحلية معهم ٠

- التوازن المتبادل بين الاكتفاء الذاتي الديموجرافي والاقتصـــادي ، والتجانس الحضاري ، والتنوع الاجتماعي الشديد .

لنبدأ بالقول بان الجماعة الريفية كانت تضم رجالا ونساء وصغارا ومسنين وكانت بعض الوظائف الاجتماعية في المجتمع الريفي التقليدي تسند للصغار وبعضها للراشدين والبعض الآخر لكبار السن . وكان هناك تمييز قاطع بين وظائف الجنسين، فقد كان للشباب المهام الاجتماعية مثل تنظيم الاحتفالات . وكان الراشدون يقومون بالوظائف الانتاجية التي تتطلب جهدا جسمانيا ، وكبار السن يقومون بنقل التراث الثقافي ومراعاة اتباع التقاليد وقواعد السلوك (١) ، وكانت القرية تضم أيضـــا مجموعات وفئات اجتماعية مختلفة . فكانت مجموعة المزارعين تشكل الأغلبية ، ولكنهم كانوا يتألفون من مجموعات شديدة التباين . فكان هناك أصـــحاب الأرض الفقراء الذين لم يكن ما يملكونه يكفي للابقاء على حياتهم ، ولهذا كان عليهم أن يجدوا عملا حرفيا آخر الى جوار الزراعة ، أو يهاجرون في الشتاء . ثم كان هناك المزارعون ذوو الملكيات المتوسطة والكبيرة والكبيرة جدا . وهناك بالطبع فرق كبير واضح بين مالك هكتار واحد لايمتلك حتى حصانا وعربة وصاحب مزرعة من أربعين هكتارا بها عدة أزواج من الثيران أو الجياد ومجموعة كبيرة من الحيوانات والدواجن المنزلية . وكان يوجد في معظم المناطق تدرج اجتماعي حقيقي بين المزارعين .

وكانت القرية تضم الى جوار المزارعين فئات اجتماعية أخرى . فكانت هناك فئة الوجهاء الذين كانوا يعيشون على انتاج الأرض دون أن يزرعوها بأنفســـهم . وكانت هذه الفئة تضم أصحاب الأرض ، سواء كانوا من النبلاء أو البورجـــوازية . وكان هناك الكثير من الموثقين والمحامين والوكلاء والقساوسة والمدرسين والأطباء . وكانت الصناعات الريفية تضم أصحاب محال الحدادة والزجاج والمنسوجات والتجار وصغار المنتجين الذين كانوا يصنعون سلعا مختلفة . وكان هؤلاء الوجهاء يشكلون مجموعة كبيرة نسبيا ذات قوة ونفوذ كبيرين .

وكانت تأتي في المقام الثاني مجموعة كبيرة نوعا ومتنوعة هي : أصحاب الحرف اليدوية والتجار أو عمال الخدمات الذين كانوا يصنعون أو يصلحون أي شيء يطلب منهم . وكان الحرفيون المهرة مثل الغزالين والنجارين وصـــناع العربات هم الذين بدأت بهم الصناعة الريفية . وأدى ازدياد هذه الفئة الأخيرة في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الى زيادة في طبقة « الفلاحين والعمال » هذه . وثالثا كانت هناك الهيئة الادارية مثل جامعي الضرائب والجنود والكتبة والمستخدمين في المزارع الكبيرة وفي الصناعات وفي التجارة .

---

(١) A. Varagnac : Civilisation traditionnelle et genres de vie, Paris, Albin Michel 1942.

وأخيرا كان هناك الكثير من الناس الذين لايملكون وسائل للانتاج · فكان على الذين لايستطيعون شيئا سوى العمل اليدوى أن يعملوا خدما أو مزارعين أجراء أو مساعدين للحرفيين ، أو اذا كانوا غير صالحين لهذا العمل أو ذاك يحترفون الشحاذة، وكانت الشحاذة مصدرا لا بأس به للدخل فى القرى القديمة ·

وكان هذا التنوع الاجتماعى هو الأساس فى تلك الحياة الاجتماعية التى كانت تتصف بالحيوية والاشباع · فقد كان الناس يستطيعون اشباع معظم حاجاتهم داخل الجماعة المحلية ·

وقد وصفت مارسيل ماجيت القرية بأنها « مجتمع التعارف المتبادل ، حيث كان كل فرد يعرف غيره ، وأعطت هذه العلاقات الشخصية مجتمع القرية شفافية خاصة » · وبفضل هذا التعارف المتبادل أضفت تلك الوحدة بين التنوع والتجانس على القرية تلك الحيوية النادرة التى تصفها المؤلفات التى تتناول الحياة الريفية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، والتى تتناقض بشدة مع الملل والبلادة اللتين تهيمنان على الريف فى هذا العصر ·

الهجرة الموســمية :

مع أن جمهور المزارعين كان يمثل فى كل الأوقات مجرد جزء من الجمهور الذى يعيش فى المناطق الريفية فان نمو السكان فى القرن التاســع عشر أدى الى ارتفاع مفاجىء فى كل المهن غير الزراعية مثل الصناعة الريفية ، كما أدى الى ارتفاع فى الهجرة الموسمية · وقد كتب نائب مدير شرطة ريوم Riom عام ١٩٤٨ يقول : « توجد فى مقاطعة سانت جيرفاس صناعتان فقط غير المهن الضرورية لمواجهة الحاجات اليومية صناعة المفروشات ، والهجرة الموسمية التى كانت تساعد على سد النقص الناجم عن عدم كفاية الزراعة · فقد كان حوالى ٨٥٠ من البنائين و ٥٠ من الحفارين يتركــون المنطقة فى مارس ويعودون فى نوفمبر ومعهم ما استطاعوا ادخاره بصعوبة من عملهم فى مناطق ليون وأورليان وشامبانى » ·

أما فى جنوب الألب فقد كانت الهجرة الموسمية ذات طابع زراعى فى جوهرها ، فكان سكان الجبال يهبطون جنوبا ومعهم قطعانهم حيث يجدون طقسا مختلفا · وكان النساء والأطفال يرعون القطعان فى السهول ، فى حين يبحث الرجال عن أعمال زراعية· وهكذا كان ساكن الجبل يحصل على الطعام له ولقطيعه ويدخر بعض النقود أيضا · وقد علق أحد مؤلفى القرن التاسع عشر متهكما على ذلك بقوله : « ان ساكن الجبال البخيل جدا فى موطنه يصاب بالنهم فى الطعام والشراب حين يصبح الطعام جزءا من مرتبه فى الشتاء » ·

وسواء كانت الهجرة صناعية ومقصورة على الرجال أو زراعية وتشمل الأسرة ، فان الزراعة فى القرية كانت تنخفض الى مجرد اقامة اود القائمين بها ، اذ انها كانت تترك للنساء والأطفال وكبار السن . على حين كان الرجال يرحلون ليكسبوا عيشهم فى مكان آخر . وكان من مصلحة الرجال ان يذهبوا وحدهم للعمل بعيدا ، اذ كان هذا يمكنهم من الاستفادة الى اقصى حد من راس مالهم الضئيل فى القرية . فكان المنزل فى القرية يأوى الأسرة ، وكانت المزرعة الصغيرة تزودهم بالطعام . ولو كان الرجال قد حاولوا بيع ممتلكاتهم المتواضعة فى القرية لما استطاعوا شراء شىء مماثل لها ، تعيش عليه أسرتهم فى المدينة .

وكانت للهجرة الموسمية ما يبررها من الناحية الاقتصادية كما اثبت التحليل الاجتماعى ، ولكن كانت لها أيضا مساوئها الخطيرة . فهؤلاء المزارعون كانوا يملكون شيئا فى قراهم ، ويشغلون مراكز محددة بوضوح ، فى حين كانوا يصبحون فى المدينة التى لا يملكون فيها شيئا بالاضافة الى افتقارهم للخبرة والمهارة بروليتاريين يستأجرون فى مواقع العمل أو فى النقل ، ولم تكن حياتهم سارة ، وفضلا عن هذا فقد كان النساء يتركن وحدهن لرعاية المزرعة والأطفال .

وعلى هذا لم يكن أمام المهاجر الموسمى الا اختيار واحد صعب ، ولكنه منطقى ، وقد ظلت كثير من الجماعات الجبلية على اتصال وثيق بالعالم الخارجى عن طريق الهجرة الموسمية ، وقد حطمت الهجرة التقليدية الموانع الجغرافية وعزلة الجبال ، وقد أبرز « ب . رامبو » حقيقة ان الحياة فى الجماعات الجبلية هذه قد عدلت تعديلا جوهريا لدرجة أن كل سكان الجبال شعروا بالحاجة الى « الخروج الى العالم » .

والوصف السابق ليس بالطبع سوى تصوير تخطيطى عام لهذه المجتمعات ، ولكن الصورة كانت تختلف اختلافا كبيرا من منطقة لأخرى . الا أن هذا الوصف يساعد على تفهم العوامل التى أدت الى انهيار التنظيم القديم للأشياء . فبفضل التصنيع الحضرى أدخل المجتمع عوامل التفكك الاجتماعى الى الريف ، محطما بذلك أسس الحضارة التقليدية ، وسوف يستغل هذا المجتمع لصالحه التفكك الذى من شأنه أن يجعل الجماعات المحلية تفقد استقلالها الذاتى .

الهجرة الجماعية ، والتغيرات فى القرنين التاسع عشر والعشرين :

يمكن للاكتفاء الذاتى الديموجرافى أن يستمر مادامت الهجرة تؤثر على الزيادة السكانية فقط ، أى زيادة المواليد على الوفيات . الا أن الهجرة الجماعية يمتد تأثيرها الى ما هو أبعد من الزيادة السكانية ، ويؤدى ذلك الى التسلط الديموجرافى (أى غلبة فئة من السكان على الفئات الأخرى) . ومن ناحية أخرى نجد أن الاكتفاء

الذاتى الاقتصادى فيها لايعود قائما ، نظرا لأن أسواق المدينة تستمر فى النمو ، مما يتطلب أن تتجه الزراعة باستمرار الى الانتاج التجارى لكى تفى باحتياجات الأسواق .

ومع هذا فقد حدثت فى مناطق كثيرة هجرة جماعية دون أن يؤدى ذلك الى فقدان الاكتفاء الذاتى التقليدى ، فقد استمر الباقون فى المنطقة فى زراعة أرضهم من أجل الحصول على الطعام . ولكن الهجرة الجماعية فى معظم الحالات لم تؤثر على كل الفئات الاجتماعية بالتساوى ، مما أدى الى حالة من عدم التوازن وتغيير النموذج الذى عرضناه .

والواقع أن الهجرة الجماعية الجزئية للسكان ليست دائما عاملا من عوامل عدم التوازن ، وذلك اذا أثرت على كل الفئات الاجتماعية دون تمييز . فالنموذج الاجتماعى قد يستمر فى أدائه لوظائفه على نطاق أضيق اذا ظلت أسسه الاقتصادية سليمة نسبيا ، وظلت الأدوار الاجتماعية الرئيسية فيه تجد من يشغلها . الا أنه فى معظم الحالات كان الجزء الأعظم من الذين تركوا القرية ينتمى الى تلك الفئات الاجتماعية التى لاتستطيع الجماعات بدونها أن تؤدى وظيفتها حسب النمط التقليدى .

وتثبت كل الاحصائيات المتوفرة والبحوث المحلية أن الشباب هم الذين يهاجرون بأعداد كبيرة وفى كل الفترات . وتبين الأبحاث الحديثة التى أجريت عن السكان الزراعيين الفرنسيين أن نصف العمال الزراعيين الشباب ، الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ سنة و ٣٠ سنة ، قد تركوا الأرض بين عام ١٩٥٤ وعام ١٩٦٢ .

والنتيجة الطبيعية لذلك هى عملية استمرار تقدم للسن تؤدى الى نتائج ديموجرافية معروفة جيدا ، وخاصة تناقص معدل المواليد . ومن الواضح أنه من الصعب فى مجتمع ذى نسبة مئوية عالية من كبار السن تحقيق حياة اجتماعية متوازنة ومرضية .

وهناك ظاهرة أخرى تنجم عن ذلك ، هى اختلال التوازن بين أعداد الجنسين . فالرجال يهاجرون أما هجرة موسمية أو دائمة ، اما النساء فانهن لايتركن القرية ، لأنهن لايستطعن الحصول على عمل ، ولهذا يظل النساء يشكلن جزءا متكاملا فى الحياة الاجتماعية والأسرية التقليدية فى القرية .

ولكن حين تشتد الهجرة الجماعية من الريف فان النساء يصبحن أكثر استعدادا للخروج من القرية ، وفى هذه المرحلة يفضل الرجال الاشتغال فى قريتهم أو فى مزارعهم ، فى حين تنجذب النساء نحو الأعمال الحضرية من الدرجة الثالثة . وقد بين أحد البحوث التى أجرتها هيئة INED أن ٥٦٪ من المهاجرين الى باريس كن من النساء .

وينجم عن هذه الاتجاهات درجات من العمر غير متناسبة تضم رجالا أكثر من النساء وكبارا أكثر من الصغار • وفى الحالات المتطرفة نجد قرى صغيرة بلا نساء فى سن الشباب ، ومزارع يديرها أفراد من كبار السن أو غير المتزوجين • وتتضح سيادة نسبة الذكور بوجه خاص فى المناطق الجبلية فى فرنسا ، اذ تصل النسبة الى ١٢٤ رجلا لكل ١٠٠ امرأة فيما بين سن ٢٥ و ٣٤ • وتؤدى زيادة نسبة كبار السن ونقص النساء ، اذا نظرنا اليها من ناحية العلاقات الاجتماعية ، الى مشكلات عظيمة ، فالحياة الاجتماعية تعتمد على الشباب وعلى النساء ، واذا كان الشباب يجد صعوبة فى الحصول على زوجة فان الحياة الاجتماعية تصبح غير ممكنة •

ولا تترك كل الفئات الاجتماعية القرية بأعداد متساوية أو فى وقت واحد • ويمكن رسم نموذج تفاضلى للهجرة الجماعية حسب الفئات الاجتماعية ، ولكن هذا النموذج سيكون نظريا تماما ، لأنه يختلف من منطقة لأخرى تبعا للتاريخ الاجتماعى • والبحوث المحلية الكثيرة التى درسناها تتسم فى العادة بالغموض فى هذه النقطة •

و تكون كبار الوجهاء عادة هم أول من يترك القرية • فقد كانوا يعيشون فى القرية وفى المدينة فى آن واحد ، وكانوا عادة يعتمدون فقط على دخلهم من الأرض ، ولكنهم كانوا يبدأون فى تخصيص جزء أكبر من وقتهم لأعمالهم غير الزراعية ، وكان صاحب المصنع يركز اهتمامه فى مصنعه ويترك ضيعته ليديرها مزارع أو وكيل أعمال • وكان الموثق والمحامى يخصصان وقتا أكثر للأعمال الصناعية والتجارية ، وكانا يضيفان اليها مجالات العقارات والشؤون المصرفية حيث يقومان بتقديم المشورة لعملائهما فيما يختص بمسائل الاستثمار • وكان الأطفال يعدون لأعمال الادارة أو السياسة أو الصناعة أو التجارة • وكان الجميع يميلون الى انفاق وقت أكبر فى المدينة ، ولا يعودون للقرية الا فى اجازات الصيف •

وهكذا فقدوا سيطرتهم السياسية على القرية ، وانتقلت تلك السيطرة الى فئة جديدة من الوجهاء • وكان المزارعون الذين كونوا رؤوس أموال يهجرون فلاحة الأرض ليحيوا حياة البورجوازية ، ويحولون مزارعهم بالتدريج الى عزب صغيرة • وكان البورجوازيون الصغار فى المدينة يسعون لتملك قطع كبيرة أو صغيرة من الأرض لكى يتشبهوا بالوجهاء السابقين • الا أن هؤلاء الوجهاء الجدد كانوا بدورهم يتجهون للمدن لتلك الأسباب التى هجر من أجلها الوجهاء القدامى القرية •

وكان الرجال غير المهرة الذين لاتربطهم بالقرية ممتلكات ، وخاصة العمال الزراعيون الموسميون ، يتركون القرية أيضا فى الوقت الذى كان يتركها فيه كبار الوجهاء • ونتيجة للنمو السكانى والتحولات الحديثة فى الزراعة كان من الصعب العثور على عمل فى المزارع ، فى حين كان النمو الصناعى يتيح الفرص للعمل فى المناطق الحضرية ، وكان الحرفيون أيضا يتركون القرية نظرا لمنافسة الانتاج الصناعى

الرخيص لمنتجاتهم ، فكان الغزالون مثلا يميلون الى الانتقال الى المصانع فى المدينة ، حيث كانت فرص الكسب أمامهم فيها أفضل منها فى القرى • وكان العمال الزراعيون والحرفيون يشكلون معا « الجيش البروليتارى » الذى ساعد الصناعة على التوسع فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر •

وكان صغار الملاك من المزارعين الذين لم تكن مزارعهم تساعدهم على ادخال التحسينات الحديثة لصغرها عاجزين عن التكيف مع الاقتصاد الزراعى المتغير ، ولهذا فانهم لحقوا بالعمال الزراعيين فيما بعد •

وقد درس « ف • بنشمل «Ph. Pinshemel ثلاثة أقـــاليم فى بيكاردى Picardy ، ووجد أنه باستثناء المدن التجـارية السـبع الصغيرة التى تقـع فى المنطقة فان السكان الريفيين انخفض عددهم الى النصف خـــلال قرن من الزمان بين ١٨٣٦ و ١٩٣٦ • الا أن هذا الانخفاض صاحبه ثبات نسبى فى عـــدد المزارعين فى الأقاليم الثلاثة : ١٨٣٦ مزارعا عام ١٨٣٦ ، و ١٨٣٢ عام ١٨٧٢ ، و ١٤٩٣ عـــام ١٩١١ ، و ١٢٢١ عام ١٩٣٦ •

وقد اختفت فئة مهنية مهمة كانت موجودة فى القرن التاسع عشر اختفاء تاما الآن ، وهى فئة « أصحاب المنازل » الذين كانوا فى عام ١٨٣٦ يشكلون ثلثى العدد الكلى للمزارعين • وكان عددهم فى بعض القرى يزيد على عدد المزارعين العاديين • وكان « أصحاب المنازل » مزارعين صغارا يمتلكون منزلا وحديقة ومزرعة دواجن وربما بقرة وقطعة صغيرة من الأرض لا أكثر • وكان ما يمتلكونه لايمثل مزرعة تكفى للاعاشة• وكانوا يلجأون من أجل المعيشة الى العمل لدى المزارعين الكبار الذين كانوا يعطونهم بعض المساعدة ، وخاصة اقراضهم محراثا وجيادا لحرث الحقل • وكانت هناك علاقات وثيقة ومعقدة بين كبار المزارعين وأصحاب المنازل ، وكثيرا ما كان أصحاب المنازل يشتغلون ببعض الحرف اليدوية مثل الغزل أو صناعة الكراسى • وهكذا كان صاحب المنزل يكسب رزقه من أملاكه المحدودة وعمله بالأجر وحرفته اليدوية •

وكانت أعداد العمال الزراعيين المأجورين ٤٢٧٤ عام ١٨٣٦ ، و ٤٨٨٤ عـــام ١٨٧٢ ، و ٤٤١٧ عام ١٩١١ ، و ١١٣١ عام ١٩٣٦ • وهكذا نجد أن عدد الســـكان الزراعيين الذين كانوا يتكونون من المزارعين المستقلين والأجراء قد ظل حتى عام ١٩١١ ثابتا تقريبا ، بل زاد زيادة طفيفة ثم حدث انخفاض شديد فى عدد العمال الزراعيين زاد عن خمسين فى المئة ، فى حين كان الانخفاض فى عدد المزارعين طفيفا •

وانخفض عدد الحرفيين من ٦٤٢٧ عام ١٨٣٦ الى ٣٤٦٠ عام ١٨٧٢ ، و ٢٥٦٩ عام ١٩١١ ، و ١١٤٣ عام ١٩٣٦ ، أى بنسبة ٦ : ١ وهكذا نجد أن الهجرة الجماعية الريفية كانت غيرزراعية فى جوهرها • وكان المهاجرون فى معظمهم نساجين وغزالين

وصناع ملابس ومشتغلين باصلاح الأنوال وصناع حبال وصباغين الخ • وفي عام ١٨٧٣ بدأ عدد الحرفيين الذين يعملون في منازلهم يتناقص ، وبدأت الورش الصناعية الصغيرة في الظهور • وبدأت هذه الورش تندمج بعضها مع البعض الآخر ، وأصبح عددها أقل عام ١٩١١ • وكانت هناك فترة قصيرة ازدهرت فيها صناعة الأخشاب والكراسي بين ١٨٧٢ و ١٩١١ • وفي عام ١٩١١ أقيمت مصانع للسكر وللخمور ومصانع للسماد • وفي عام ١٩٣٦ اختفت الورش الصغيرة تماما • وهكذا شهد هذا القرن تغيرا اجتماعيا عميقا • وحل محل التكامل بين الانتاج الزراعي وانتاج النسيج زراعة تعتمد على الصناعة الزراعية والتحويلية •

وظل عدد العمال الحرفيين الذين يقدمون الخدمات والتجار والمهن الحرة كما هو في كثرته ، مع انتقال هذه الفئات من القرى الى المراكز الاقليمية • وقل عدد الحرفيين بنسبة طفيفة ، وبدأوا يقومون بأعمال مختلفة ، فحل محل الحداد ومنجد الأثاث ميكانيكي الآلات الزراعية • وازداد عدد التجار من واحد في كل ٦٠ ــ ٧٠ مواطنا الى واحد في كل ٥٠ ، ولكن عددهم الكلي قل بصفة عامة • وزاد عدد المهن الحرة ومستخدمي الدولة (الموثقين والأطباء والجنود وجامعي الضرائب والمدرسين الخ) من ١ في كل ١٠٠ مواطن سنة ١٨٣٦ الى ١ في كل ٣٤ ــ ٣٩ عام ١٩٣٦ •

ويميز « بنشمل » بين « القرى القوية » و « القرى الضعيفة » • فالأولى كانت قرى عمال القرن الثامن عشر ، وهم من المزارعين المعدمين الذين تحملوا الأزمات أو قاموا بخطوات ايجابية فزادوا من ممتلكاتهم عن طريق شراء الأرض ومنع أصحاب المنازل أو العمال المأجورين من أن يصبحوا مزارعين • أما القرى الضعيفة فكان بها أصحاب منازل أو عمال مأجورون فقط ، غير قادرين على التوسع • وقد ترك هؤلاء أرضهم ليعملوا لدى كبار المزارعين في القرى القوية •

وبعبارة أخرى استطاع البناء الزراعي مقاومة التغير في بعض القرى ، لأن أصحاب الأراضي الكبيرة كانوا قادرين على ادخال التحسينات الحديثة ، في حين كان على الفئات الاجتماعية الأخرى ، مثل أصحاب المنازل ، أن تهجر القرية • والذي حدث في القرى التي كان يشكل فيها المزارعون الفقراء والحرفيون أغلبية السكان أن البناء الاجتماعي أخذ يترنح حتى تهاوى في النهاية ، وقام المزارعون الكبار من القرى المجاورة بشراء قطع الأرض الصغيرة •

وهكذا فان المجتمع المحلي ، الذي يتكون أساسا من المشتغلين بالزراعة ، كان معرضا للتأثير المباشر للصناعة •

الموقف الراهن :

اذا قارنا قرية عام ١٨٣٠ بقرية عام ١٩٦٠ فاننا نجد أنه مع مغادرة كل هذه الفئات الاجتماعية للقرية لم يبق سوى المزارعين الكبار والمتوسطين . ولم يعد بالقرية اى تنوع اجتماعى ، ولما كان هذا التنوع شرطا أوليا للحياة الاجتماعية التقليدية فان الهجرة الجماعية الريفية أدت الى اختفاء هذه النمط من الحياة .

وظاهرة اقتصار قاطنى الريف على المشتغلين بالزراعة تتزايد باستمرار مادامت الفئات الاجتماعية الأخرى قد انتقلت الى المناطق الحضرية . كما أن مؤسسات القرية مثل المدارس والكنائس والتعاونيات تميل الى الانتقال آلى المدن التجارية . وأصبح كلا الاتجاهين اكثر وضوحا ، واحدثا تغيرا فى نطاق المجتمع الريفى . فقديما كانت القرية تعتبر اطارا سليما لتحليل الشكل التقليدى للمجتمع ، فى حين اصبح اطار مثل هذا البحث الآن هو مجموعة القرى . اى أن مقياسا طوله حوالى كيلو متر واحد أصبح يساوى الآن عشرة كيلومترات .

ولم يؤد رحيل مختلف الفئات الاجتماعية فى أوقات مختلفة الى احداث الاضطراب فى الشكل الاجتماعى العام فحسب ، ولكنه أدى أيضا الى احداث خلل فى « توازن القوى » . فقد كان الوجهاء يتمتعون وبالسلطة السياسية والاجتماعية فى المجتمع ككل . وكانوا هم الذين يتولون الاتصال بالعالم الخارجى . وحين تركوا القرية أصبحت هذه الوظائف خالية . وقد كان من الطبيعى أن يميل بورجوازيو المدينة الصغيرة أو المزارعون الأغنياء فى فرنسا ، الذين اشتروا الاقطاعيات أو قسموها فيما بينهم ، الى أن يرثوا هذه الوظائف ويصبحوا وجهاء ، وحين ذهبوا هم أيضا فانهم تركوها للمدرسين والأطباء . وقد كان كل جيل من هؤلاء الوجهاء يدعم نفوذه بطريقته الخاصة ، فيعمل على تبطىء حركة الهجرة الجماعية أو الاسراع بها حسبما تمليه عليه مصالحه . وقد ادى رحيل الوجهاء ، سواء كانوا من النبلاء أو البورجوازية ، الى انهيار حجر الأساس فى التدرج الاجتماعى للقرية . وانتقل ثقل النفوذ الآن من الأقلية ذات النفوذ الى اكبر المجموعات عدداً : المزارعين . وهكذا اختفى مبدأ التنوع والتدرج فى المجتمع ، واصبح الجميع متساوين اجتماعيا ، ولم تعد هناك فرصة للترقى الاجتماعى ، واصبح على كل من يرغب فى تغيير مركزه أو فى التقدم فى الحياة من الشباب ان يترك القرية .

ومع تناقص السكان يصبح من الصعب الابقاء على المؤسسات الجماعية مثل مجلس القرية أو المدرسة أو الكنيسة ، وخاصة حين يكون ألسكان زراعيين تماما . ففى هذه الحالة تصبح وظيفة مجلس القرية هى تناول المشكلات الزراعية فقط ، وظهرت بعض المنظمات المهنية ، مثل روابط الفلاحين والمنتجين والجمعيات التعاونية ، وأصبح أعضاء مجلس القرية هم انفسهم اعضاء هذه المنظمات ، واصبح هناك ازدواج . وأصيب مجلس القرية بالفراغ ، ولم يعد هناك مرشحون يتقدمون لانتخابات المجلس ، واصبحت

ميزانيته ضئيلة لدرجة لا تسمح باتخاذ أى عمل ، ويصدق هذا أيضا على الكنيسة واتحاد الفلاحين • ان الجماعة التى تضم مئتين من الناس لا يمكن أن تضطلع بأعمال المؤسسات التقليدية ، فما بالنا بمؤسسات جديدة مثل المراكز الاجتماعية أو الترفيهية •

ومن المفارقات أن التدهور فى السكان وفى الحياة الاجتماعية صاحبهما كثرة وتعدد فى المؤسسات التى لم تعد تلعب دورا فى الحياة الاجتماعية ، فالهجرة الجماعية « تغذى نفسها » بتحطيم الأبنية والميكانيزمات التى تجعل حياة القرية ذات قيمة بالنسبة للقرويين • وقد أجرى الكثير من البحوث فى مختلف البلدان عن وجود الكنائس والمدارس وعن عملاء مختلف الحرف والمهن ، الا أن هذه البحوث لم تصل الى استنتاجات أو حتى الى معايير يمكن الرجوع اليها • فمثل هذه المعايير لابدان تختلف باختلاف الظروف الديموجرافية • ولكن قد يكون من المفيد أن نورد بعض الأمثلة •

لقد سارت فى خط متواز مع الهجرة الجماعية ظاهرة تربط الزراعة والانتاج الصناعى الحضرى ، وقد نكون على حق حين نتساءل هل التقدم الفنى فى الزراعة قد جعل من نفسه بديلا لأصول الحياة الجماعية التقليدية ؟ ان التفاعل الاجتماعى القديم الذى كان يقوم على التنوع سوف يحدث ، بعد اختفاء الكثير من الفئات الاجتماعية ، بين تلك الفئة التى بقيت فى الجماعة ، أى فئة المزارعين • وسوف تظهر قيم جديدة : فسيكون المزارع الكبير هو الشخصية المركزية ، وسوف يحصل نتيجة ادخاله للأساليب الفنية الزراعية الحديثة على نفوذ متزايد ، ويحتل مركز الوجهاء السابقين •

هذا التشكيل الجديد لحياة القرية معروف جيدا للمتخصصين فى الدعاية الزراعية ، الذين يعرفون أنهم يجب عند محاولتهم الترويج لسلعة فنية جديدة أن يقنعوا بها أولا مزارعا كبيرا • وحين يحدث ذلك فان الآخرين سوف يحذون حذوه ان عاجلا أو آجلا •

ومع التقدم التكنيكى تحولت الزراعة فى النهاية الى الانتاج بغرض التسويق • وحل الاعتماد المتزايد على الأسواق الخارجية ــ المدن ــ محل الاكتفاء الذاتى التقليدى• وأصبحت الزراعة ترتبط ارتباطا وثيقا بالصناعة ، التى تزودها بالأسمدة والآلات والمهندسين الزراعيين ، الخ • وهكذا نجد أن الأنظمة الاجتماعية لهذه الجماعات المحلية لم تعد ذات اكتفاء ذاتى ، وأنها سوف تصبح بالتدريج جزءا متكاملا فى المجتمع الكلى •

وقد يعترض البعض على أن ما قلناه حتى الآن مبالغ فيه الى حد ما • فمازلنا نجد فى كثير من أجزاء أوربا بقايا لأساليب الحياة والأنظمة الاجتماعية القديمة ، بما فى ذلك العلاقة بين مالك الأرض والمستأجر ، وغيرها من العلاقات التقليدية ، ولكننا

سرعان ما نكتشف أن هذه البقايا لاتقـــوم على حقائق اجتماعية ، ولكن على رفض للتغيير • وهذا الرفض يحدث أساسا فى المناطق المتخلفة التى لم تتغير فيها الزراعة بدرجة تكفى لظهور أبنية اجتماعية جديدة • فحين يكون صاحب الأرض الكبير من سلالة الوجيه القديم (ليس مزارعا غنيا يدخل الميكنة) ويستمر فى زراعة أرضه ، مستخدما فى ذلك مجموعة كبيرة من المأجورين والفلاحين ، بدلا من العمل على تدعيمها وتقويتها ، فاننا نجد أن العلاقات الاجتماعية التقليدية تبقى قائمة ، بل تدخل معركة المؤخرة مع النظام الاجتماعى الكلى الجديد • وينتج عن هذا تلك « الحلقة المفرغة » التى يعرفها جيدا خبراء المناطق المتخلفة ، وأهم عناصر هذه الحلقة الأبنية الاجتماعية التقليدية ، ورفض التقدم التكنيكى ، والعداء تجاه العالم الخارجى ، والفقر النسبى للجماعة ، وسوء النية تجاه أى شيء يهدد بناء الأشياء التى أصبحت « ملاذا » الخ •

ويتصف العالم الريفى فى البلاد المتطورة فى نموها الآن بوجـــود النمطين من الجماعات الريفية معا ، فمن جهة نجد تلك الجماعات التى استطاعت بعد ظهور النظام الاجتماعى القائم على التقدم التكنيكى أن تتكيف مع المتطلبات الاقتصـــادية للمجتمع الكلى ، ومن جهة أخرى نجد تلك الجماعات التى بقيت على هامش التطور الاجتماعى ، وتتبع الى حد ما أساليب الحياة والتفكير الموروثة من الحياة التقليدية •

وكل نمط بلا شك يسود فى بعض المناطق بأسرها ، الا أن الملاحظ يواجه عادة بحقيقة أكثر تعقدا ، وهى وجود النمطين جنبا الى جنب فى مجموعة من القرى ، أو فى القرية الواحدة ، حيث توجد مجموعتان اجتماعيتان متعارضتان. فمثلا يجد أن مجموعة من الزراعيين قد كيفت نظام انتاجها للسوق الخارجى ، فى حين يجد أن أعضاء مجموعة أخرى ، وجدت عملا فى مدينة مجاورة ، مستمرة فى زراعة ممتلكاتها الصغيرة ، أو تعمل باليومية فى وقت فراغها •

وعلى غير المتوقع نجد عادة أن المجموعة الثانية هى الأكثر استعدادا للمحافظة على الأسلوب القديم للحياة ، اذ يبدو أنها راغبة فى ترك المزارعين المتفرغين يتولون شؤون الحياة فى القرية ، ويحلون فعلا محل الوجهاء السابقين • وفى هذه الحالة يحـــاول المزارعون المتفرغون استخدام مؤسسات القرية لصالحهم ، أو اذا شـــعروا بتهديد للزراعة يتدخلون للحفاظ على الأساليب التقليدية • وتلك مرحلة انتقالية ، فالمجتمعات الصغيرة لاتعيش دائما فى وفاق • وتكون النتيجة احساسا بالاحباط ، وتطلعا للعودة الى الأسلوب التقليدى للحياة •

وقد أدت النماذج الاجتماعية الانتقالية التى حلت محل النماذج التقليدية دور الوسيط فى التحول الزراعى الاقتصادى • ويمكننا الآن تصور الأنماط التى يمكن أن يأتى بها المستقبل •

نموذج المجتمع المحلي فى المستقبل

ما زالت صورة الريف بوصفه معمل الانتاج الزراعى قائمة · فاذا ما اتسع نطاق مفهوم « الريف » ليشمل المدن الريفية الصغيرة فاننا نجد أن السنوات الخمس عشرة الماضية قد شهدت تضاؤلا ، نسبيا ومطلقا ، للقطاع الزراعى فى مجموع السكان العاملين فى المناطق الريفية ، وبذلك نعود ـ بشكل آخر ـ الى الموقف عند بداية القرن التاسع عشر : تضاؤل مستمر فى عدد العمال الزراعيين فى الريف ، وتراجع مستمر فى كون الريف معملا للانتاج الزراعى ·

ان تحليلنا ينصب الآن على وحدة مختلفة · فقد كان من الممكن تسمية مجتمع الفلاحين فى القرن التاسع عشر « مجتمع القرية » أو « مجتمع المزارعين » ، وعلى العكس من ذلك لا يمكن تسمية المجتمعات الريفية اليوم أو غداً بالقرى ، ولكن مناطق ريفية تتركز حول مدينة صغيرة ولكنها ريفية أيضا · ويعود تنوع قرية القرن التاسع عشر مرة أخرى للظهور الآن ، ولكن على صورة اخرى : فهناك عدد متضائل من الزراعيين ، ولكن يوجد عدد كبير نسبيا من السكان الذين يعملون فى قطاع الخدمات ، وجمهور ثانوى يشتغل فى صناعات محلية صغرى ، وجمهور مقيم غير منتج·

والنموذج المثالى للمجتمع الريفى فى المستقبل يمكن أن يكون مدينة صغيرة ذات سكان يصل عددهم الى ٥٠٠٠ ، ولا يزيد على ١٠٫٠٠٠ ، تحيط بهم مزارع وعزب زراعية ، بالاضافة الى جمهور من السكان منتشر بطريقة مبعثرة حول المنطقة ·

هذا البناء على الرغم من أنه على مستوى مختلف يمكن تشبيهه بقرية القرن التاسع عشر التى كانت تحوى عددا من السكان يصل الى حوالى ١٠٠٠ يتمركزون حول الكنيسة ومجلس القرية · وسوف يكون مركز المدينة الريفية الحديثة أكبر بكثير، نظرا للتنوع المتزايد للمدينة الصناعية · على أنه سيكون هناك فرق جوهرى واحد ، وهو أنه فى النموذج الجديد سوف يكون المجتمع الكلى فى متناول أى عضو فى الجماعة المحلية عن طريق وسائط الاتصال الجماعى : التليفزيون ، والصحافة ، والسينما · فسوف تصل اليهم فى منازلهم ، على عكس القرى القديمة التى كانت الوسائط الوحيدة بها هى « الوجهاء » ·

وهكذا نجد أن البناء الجديد سوف يكون حضريا وليس ريفيا · وسوف يكون مشابها لضاحية المدينة فيما عدا قلة الكثافة السكانية ·

وبهذا فان العامل التنظيمى للجماعة الريفية المحلية فى المستقبل لن يكون التقاليد أو المصادر الطبيعية ، ولكن قربه وعلاقاته بالمجتمع الحضرى الحاكم · ويناظر التركيز الريفى ميل المناطق المتحضرة للتوسع الخارجى · فالمدن تتضاءل فيها باستمرار

خاصية « المراكز ذات الاسوار التى يعيش فيها الناس » ، ولكنها تتكون على الرغم من كثافة التحضر من سكان لاتربطهم شبكة قوية من العلاقات • وقد ينطبق وصف المجتمع الريفى أيضا على المجتمع الحضرى • واذا استخدمنا هذا المنظور فاننا لانجد فرقا بين مجتمع ريفى حقيقى يبعد عن أى مدينة وبين مجتمع حضرى هامشى ذى نسبة مئوية قليلة جدا من المزارعين •

واذا نظرنا عن قرب لهذا المجتمع الريفى أو الحضرى الهامشى وجدنا أن نسبة السكان الزراعيين تتراوح بين ٥٠٪ من السكان العاملين فى المناطق التى مازالت « معامل زراعية » و ٢٪ من السكان العاملين فى بعض المجتمعات الحضرية الهامشية • أما باقى السكان فانهم يعيشون فى المجتمع ويعملون فى المدن أو الضواحى أو يحصلون على معاش أو لديهم وسائل مستقلة لكسب العيش •

أما فى المجتمع الريفى الخالص فان السكان غير الزراعيين العاملين قد يعيشون فى المجتمع ، ولكنهم ينتقلون بوسائل المواصلات الى مسافات طويلة أو قصيرة • وفى المناطق التى بلغت درجة عالية من التصنيع ، مثل شمال أو وسط فرنسا وهولندا وبلجيكا وأجزاء من المانيا ، فان السكنى فى الريف أو الحضر لا تهم كثيرا المشتغلين فى الصناعة والادارة • ومع هذا فان السكان الزراعيين العاملين يكون عددهم كبيرا فى المناطق الأقل ازدحاما بالسكان ، فهذه لمناطق هى « الريف الحقيقى » • أما الجمهور غير الثابت فقد يزيد بفعل السياحة الموسمية والهجرة الترفيهية فى الاجازات ، وهذا هو الوجه المقابل للهجرات الموسمية للعمال الزراعيين فى الفترات السابقة •

وظاهرة الاقامة الثانوية تنمو فى المناطق الساحلية وأماكن الاصطياف وكذلك فى المناطق الريفية الخالصة ، ويبدو أن أهمية الهجرة بعد التقاعد عن العمل تتزايد فى مجتمعنا ، نظرا لأن التزايد فى فترة الحياة المتوقعة وفى فترة التقاعد يؤدى بأعداد متزايدة من الناس الى المعيشة اعتمادا على دخولهم ، وكمستهلكين فقط • فهناك الكثير من الناس الذين يفضلون المعيشة فى الريف على المدن •

ويتزايد عدد هؤلاء السكان المؤقتين أو الدائمين المستهلكين غير المنتجين باستمرار فى الريف ، فلديهم حاجات لابد أن تشبع ، ونقود يمكن أن تنفق • ويؤدى ذلك الى انشاء خدمات تشتمل على البيع والخدمات الترفيهية والثقافية فى مدن صغيرة تتكون من عدد كبير من السكان المشتغلين بالخدمات •

وأخيرا يمكن أن تساعد الاتصالات اللاسلكية بعض الخدمات على الانتقال من المدينة الى الريف • فالبنك الكبير مثلا يمكن أن يفتح فرعا فى أى منطقة اذا توفرت وسيلة سريعة وسهلة للاتصال •

وسوف يتكون سكان المناطق الجبلية أساسا من الناس القادمين لتمضية أجازة الصيف أو محبى رياضة الشتاء • وسوف تمثل هذه المناطق حالة هامشية ، أعنى منطقة سياحية بها أماكن للخدمات يديرها عدد قليل من المرشدين وأصحاب الفنادق لخدمة السياح الذين يأتون للانزلاق على الجليد ، أو اتاحة الفرص لأطفالهم للتمتـــع بالهواء النقى •

ولقد كانت الزراعة دائمة مهنة اعاشة تزود المزارعين بما يحتاجون اليه لغذائهم، وكان الريف فى القرن الثامن عشر مثالا على صدق ذلك ، فقد كان من بين أسباب قيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ أن سكان القرى لم يجدوا ما يأكلونه • وفى هذه الأوقات كانت الحكومات تشعر بالقلق بسبب نقص الطعام فى الريف ، أما الآن فان الوضع عكس ذلك ، اذ أن على الحكومات أن تواجه مشكلات زيادة الانتاج الزراعى عما هو مطلوب •

وقد تعود المشكلة القديمة للظهور فى المجتمعات الجديدة ، اذ يكون على القرى الحديثة أن تستجلب الى جوار المنتجات الصناعية الطعام مثل أى جهة حضرية • ومن احتمالات التطور فى المستقبل عودة انتاج الأفراد لطعامهم ، فكل الســكان الذين لا يرتبطون بأعمال أو لديهم مصادر خارجية للدخل قد يخصصون جزءا من وقت فراغهم لزراعة الحدائق أو تربية الدواجن •

وتتزايد المهن اليدوية البسيطة فى كل من المدينة والقرية • فالانتـــاج المقنن بالجملة لا يفى بكل الحاجات الشخصية ، ولهذا فان نوعا جديدا من العمل الذى يعتمد عليه بعض الناس فى حياتهم سواء فى مجال الزراعة أو المهن اليدوية سوف يظهر الى الوجـــود •

خاتمـــة :

يتضح لنا ، بعد عرضـــنا للاتجاهات التنظيمية للمجتمعات الريفية فى البلاد الصناعية ، أن المجتمع الريفى فى المستقبل قد يتجه نحو استعادة السمات الأساسية للقرى القديمة بدرجة أو بأخرى • ونحن نشير الى تلك السمات التى أخذت فى الاختفاء بسبب الاضطرابات التى أحدثها التصنيع والهجرة الجماعية الريفية :

١ ــ التجانس الثقافى ، الناجم عن المشاركة فى مدنية كلية لامدنية محلية خالصـــة •

٢ ــ التنوع الاجتماعى الناجم عن كثرة الخدمات الريفية وفئات الســـكان المقيمين فى الريف •

٣ ــ العلاقات الاجتماعية المتماسكة القائمة على النشاطات الثقافية والرياضية والسياسية والدينية وغيرها •

٤ ــ الزراعة ، سواء للتجارة أو الاعاشة ، سوف تكون عمل الأقلية •

٥ ــ تداخل المهن الزراعية وغير الزراعية داخل الأسرة الواحدة ولـــدى بعض الافراد الذين يزاولون المهن الزراعية وغير الزراعية معا •

٦ ــ سوف تلعب الهجرة الموسمية دورا مهما كعنصر للاتصال بالعالم الخارجى وللنمو الســـكانى •

ومع ذلك فان الانتقال من النمط القديم الى الحديث ــ اى من سكان يبلغ عددهم ٥٠٠ الى سكان يصل عددهم الى ١٠٫٠٠٠ ــ لن يجعل العلاقات التعارفية المتبادلة شيئا ممكنا . وسوف تظهر العلاقات الوظيفية أو البعيدة (او الثانوية) ، كما ستظهر أيضا مجموعات حضرية أولية ذات علاقات شخصية جديدة •

وقد يجد بعض القراء أن تشبيه المجتمع الريفى فى القرن العشرين بالمجتمع الريفى فى القرن الثامن عشر شىء مفرط فى الخيال ، ويعزونه للحنين الى النظام القديم والتطلع الى العودة اليه ، ولكننا ندعوهم الى النظر فى مدى صـــدق عناصر الملاحظة المتوفرة وتماسك النموذج الذى نقدمه •

والحق أنه ليس هناك عمل أكثر الحاحا فى أواخر هذا القرن العشرين فى البلاد الصناعية من دراسة ميكانيزمات انتقال هذه الأصول الاثنولوجية والابقـــاء عليها •

ويجب خلق وسائل عقلية صالحة لوصف التنوع التقليدى ، وللتعبير عن تنوع المستقبل والتنبؤ به •

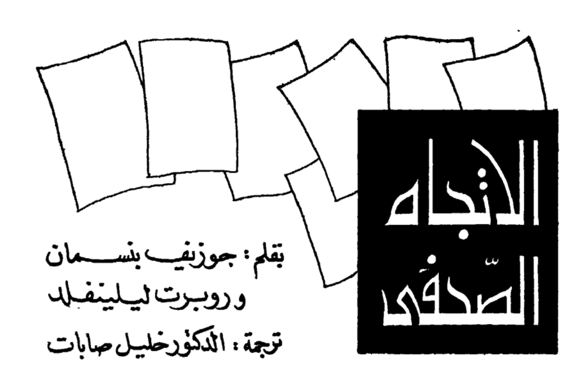
فاذا أخفق عالم الاجتماع الريفى فى القيام بهذا العمل فسوف يأتى الوقت الذى يختفى فيه السكان المزارعون ، وحينئذ يجد نفسه عاجزا عن الاجابة على واحد من أهم الأسئلة التى أثارتها حضارتنا ، وسوف يكون عليه أن يلجأ الى الأدب الشعبى أو الى علم الاجتماع النفسى الذى يعالج العمل الزراعى ، ومعنى ذلك أنه لن يصبح عالم اجتماع •

الكاتب : هنرى مندراس

ولد عام ١٩٢٧ • تخصص عاما فى جامعة شيكاغو استاذا بمعهد الدراسات السياسية ، مدير البحوث فى معهد البحوث القومى • بعث فى مهمة خاصة للاستقصاء وجمع البيانات باليونان لليونسكو • مدير الجماعة السسيولوجية الريفية التابعة للجمعية القومية للبحوث الاجتماعية والمتخصصة فى أبحاث تغيرات المجتمع وعقلية الفلاحين • له مؤلفات عديدة فى النواحى الاجتماعية والسياسية والسيكلوجية •

المترجم : د. سمير نعيم احمد

استاذ بكلية الاداب بجامعة عين شمس ، بقسم الاجتماع



المقال فى كلمات

لقد نعتت الصحافة حقا بانها السلطة الرابعة ، اذ تاخذ مكانها بما تتمتع به من سلطة واسعة وتاثير بالغ فى المجتمع جنبا الى جنب مع السلطات الثلاث الأخرى : التشريعية ، والتنفيذية ، والقضائية • وفى هذا المقال يتناول الكاتب الصحافة ورجالها • انه يرى فى الصحفى فنانا ذا طابع خاص ، فنانا يخضع لمتطلبات زمنية وانسانية • انه فنان عليه أن يتبين اتجاهات جمهوره ، ويسبغ فنه المبدع على الواقع لكى يستسيغه هذا الجمهور ويقبل عليه • ويتناول الكاتب كذلك الصحافة كوسيلة اعلامية من ناحيتين : الناحية الاجتماعية ، والناحية الفكرية ، بما فى ذلك الاعلام العلمى والفنى والثقافى • ولما للاعلام من اهمية قصوى للمجتمعات والمنظمات وجد أنه لابد من استخدام اخصائيين للاشراف عليه • ومما يؤخذ على الصحفى أحيانا أنه ، بوصفه عاملا فى مؤسسة متخصصة ذات مصالح خاصة ، يصوغ ما يكتب فى عبارات تحابى هذه المصالح ، مما قد يسهم فى خلق مظاهر منتحلة وفى خلق حياة عامة مزورة • وبذلك فان مفاسد الاتجاه الصحفى انما ترجع فى الأصل الى تسخير الصحافة فى غايات بعيدة عن اهدافها الأصلية • ومن ميزات المعالجة الصحفية للامور الأكاديمية تفسير الانجازات الجليلة بعبارات سهلة بسيطة ، ويتم ذلك غالبا على أيدى افراد غير متخصصين ، لكنهم يعرفون كيف يتحدثون عنها • وفى مجال الدعاية تقدم

الصحافة الحجج التى تساند او تعارض فكرة ما او مشكلة ما ، ولكن هذا الجدل لايصل الى تجريد المشكلة الأصلية وخاصة أمام جمهور غير مختص • انها قد تستبدل بالتفكير المنطقى اختيار كلمات ذات شحنة تاثيرية كبيرة • اما فى مجال العلاقات العامة فعلى الصحافة اذا ارادت النجاح أن تتجنب الروتين فى تقديم المواد الاعلامية ، وتلجأ الى الابتكار المتواصل •

يختص الاتجاه الصحفى برواية أحداث هذا العالم بوسائل دورية ، الطباعة احدى مميزاتها الأساسية ، سواء تعلق الأمر بجريدة يومية أو صحيفة أسبوعية أو نصف شهرية ، أو برنامج اذاعى أو تلفزيونى • ان فعل الرواية محدود ، لابمعنى أنه ينقل صورة للعالم محددة باطار الحدث المروى فحسب ، بل انه محدد كذلك بدورية المطبوع • فالزمن يصبح اذن بعدا جوهريا يتوقف عليه جانب كبير من رواية الأحداث هذه ، التى تعطى صورة للعالم وتحددها •

والزمن المميز على هذا النحو ليس هو الزمن الطبيعى للانسان العادى ، لأنه نظرا لدورية المطبوع يكون هذا الزمن عاملا موضوعيا خاضعا لظروف خارجة عن الظروف النفسية للفعل تتحكم فيه على الرغم من امكان ادخالها ضمنه •

وليس الزمن بالنسبة للصحفى الا عارضا تحكمه متطلبات المطبوع وليس له من نسق خاص الا اقتصاده وانتظار القراء : فالمطبوع يصدر وفقا لدورية معينة • لذا كان عليه ، دون أن يأخذ فى الحسبان عدم الاستكمال الاحتمالى لبحثه ومعارفه ، أن يقدم قصة تبدو فى آخر سطر لها كأنها كل كامل • ان العنصر المكتمل من القصة أو (الكيف) الصحفى ، يشبه صورة عالم كامل كما يقدمها عمل فنى ، ولهذا السبب يكون الصحفى فنانا من هذه الناحية ، ولكنه فنان يخضع عمله لمتطلبات زمنية لاتميز الفنان على وجه العموم . وان ضرورة تقديم قصة كاملة بذاتها تضطر الصحفى الى العمل بغرض الوصول الى خاتمة غير التي كان يمكن أن تكون لو لم يخضع لهذه المتطلبات الزمنية •

طابع آخر للاتجاه الصحفى يأتى من موقف الصحفى تجاه قرائه • ففى الاتجاه الفنى يعد الفنان المبدع صورته الخاصة الذاتية للواقع ويعرضها باستخدامه التقنيات الموضوعية لفنه ويفرضها على جمهوره • فهو يخلق اذن النماذج والرؤية التى سوف يحكم على عمله بمقتضاها •

اما الصحفى المقيد بدورية المطبوع لأنه فى الواقع يبيع نمطا من وسيلة اعلامية ، فانه يضطر الى توقع استجابة جمهوره تبعا لما يسميه الصحفى « بالاهتمام الانسانى » فعليه أن يعرف مقدما أن هذا الخبر سوف يثير الجمهور أو يسره أو يشحذ قواه عند نشره . وهذا يعنى أن تيار انتباهه يجب أن يتبع التيار الطبيعى لانتباه جمهوره . يجب أن يتخلى عن قصصه واهتمامه بهذا الحدث أو ذاك بقدر ما تتغير الاحداث ذاتها ، سواء فيما يختص بوجهها الدرامى فى نظر الجمهور ، أو على وجه يتسق واهتمام الجمهور ، كما يتصوره الصحفى (١) .

والقول المعروف المعاد الذى يؤكد أنه ليس هناك أقدم من جريدة الأمس قول حقيقى اذن ، بحيث لايمكن اعتباره قولا معروفا ومعادا .

ولهذا السبب لايكون للصحافة بالضرورة أو لايمكن أن يكون لها العمق والصفة اللازمنية للفن ، مع أنها لاعتبارات أخرى تجعل المرء يفكر فى صنعها للصور .

ومع ذلك فان للصحافة ، من وجهة نظر ثالثة ، عدة سمات مشتركة مع العلم والفن ، ذلك أن احدى مميزات الصحافة الجيدة أنها تؤدى الى تعديل قيمة العالم الطبيعى تعديلا مؤقتا على الأقل ، لأن الصحافة الجيدة تتخذ اطارا لها عالم الافتراضات اليومية الوتيرية ، الشىء الذى ينتظره عادة جمهور طبيعى ويكتشف فى الرواية المعبرة عدم انتظار الحياة اليومية . وهكذا فان ما يعطى « مادة للاعلام » والوجه الدرامى و « الاهتمام الانسانى » للقصة يبحث سواء عن التأكيد الدرامى أو النفى الدرامى عن طريق أحداث عالم الحياة اليومية .

فعندما يقدم الصحفى على المسرح التكذيب الذى تفرضه الاحداث على الحياة اليومية ، فانه يبرز المتناقضات التى توجد بين الصورة والواقع والخدع والمغالطات التى تتوارى خلف عدة واجهات ، ويقترح تحريك تراكيب الزم لادارة عالم المظاهر . وتؤدى هذه الأنشطة أحيانا الى تجديد بعض القيم ، المهملة غالبا ، لأنها مقبولة ولا أحد يفحصها . وفى أحيان أخرى فان نتيجة هذه الافشاءات الدائمة قد تكون تنزيلا للقيم حين تبدو هذه الأخيرة بلا أثر . ولكن فى كلتا الحالين فان كتابة التقرير الاخبارى الجيد

---

(١) وهذا ما يقوله جورج سيمل ، فى التصنيف الفوقى والتنظيم ، الجزء الخامس « قائد ومقود » : « يعطى الصحفي مضمونا وتوجيها لآراء جمهور صامت . ولكنه يضطر مع ذلك الى ان يصغى الى اتجاهات هذا الجمهور وينسقها ويكتشفها والى مايرغب فى الاصغاء اليه وان يسمع تأكيده ان اراد ان يوجه . ففى حين ان الجمهور وحده يخضع ظاهريا لايحاءاته فانه فى الواقع وبالقدر نفسه يخضع لايحاءات الجمهور . ان تأثيرا متبادلا فى غاية التعقيد (تظهر قوتاه التلقائيتان بالتأكيد فى اشكال مختلفة تماما) يختفى اذن هنا خلف صورة التفوق غير المقيد لاحد العناصر والسلبية غير المقيدة للآخر » من علم اجتماع جورج سيمل ، ترجمة كرت ولف ، نيويورك ، فرى برس بيبرباك ، ١٩٦٤ ص ١٨٥ - ١٨٦ .

تعتبر أكثر من تقرير اخبارى ، انها فعل خلق واعادة خلق ، على أن آثارهـــا ، مهما اشـــتدت فى وقت ما ، لن تكون على الأرجح ســوى مؤقتة ، ذلك أن الصـــحفى مضطر الى أن يغير دائما مكان بؤرة الانتباه : ان كشف الأسرار نفسه ، فى هذا المجال الخاص أو ذاك ، يصبح عملا رتيبا ، وتتغير تبعا لذلك استجابة القراء ٠

وان كانت نتيجة هذه الأنشطة يمكن أن تكون ، من وقت لآخر ، فضيحة عامة أو القاء القبض على مجرمين ، أو تعديلا فى تصميم سيارة أو اصدار تشريع جديد أو تغييرا فى حساسية الجمهور ، فان الصحفى الذى يعيش عند نقطة الفصل بين المظاهر والواقع سوف يشعر على الأرجح ، من وجهة النظر الشخصية ، بأن كل المظاهر تنطوى على الغش وبأنها مصطنعة ومتلاعب فيها لأسباب خارجة تماما عنها ٠ وان الاتجاه الشخصى الذى ينجم عن ذلك قد يكون الجرأة الفكرية التى مع ذلك لاتتعارض بالضرورة مـع الأمانة الفكرية ومع الاحتفاظ بنماذج عالية فيما يختص بالاخلاق الشخصية ٠

وبتقديمنا هذه الميزات للاتجاه الصحفى كدنا أن نهمل الميزات الأبسط والأوضح للسهولة التقنية فى معالجة وتنسيق ومعاملة الكلمات والرموز بحيث اذا اتخذت فى مجموعها أنتجت مؤقتا الصورة الكاملة لحقيقة مرسومة حول حدث أو قصة ٠

واذا نظرنا الى الصحفى من زاوية مهارته التقنية ، كعامل أو كصـــانع ، اعتبر ناشرا للأخبار ، فهو قادر على تقديم صور للعالم فى أشكال ظاهرها واضح ومجسد وبسيط ودرامى ، وفى أشكال خالية من التجريد أو الأكاديمية أو التعقيد ٠

وهذا الوجه الأخير ، وجه المهارة التقنية والجمالية للصحفى ، لا يشكل فقط منهجه المهنى ، ولكن يكون سببا كذلك لتقدير الآخرين له ٠

استخدام الاتجاه الصـــحفى :

يمكن دراسة صفات الصحفى كاخصـــائى اعلام من زاويتين : أولا من زاوية الوظائف الاجتماعية للصحافة ونتائجها الاجتماعية ، ثم من زاوية علاقات هذا الاتجاه بالعمل الفكرى أيا كان ، دون أن نستثنى العمل العلمى والفنى والمعرفة الواســـعة المتعمـــقة ٠

الاندماج الاجتماعى والوظائف الاجتماعية للصحافة :

للصحافة بوصفها نشاطا معنى واحد فى أوساط اجتماعية مختلفة لن تحتـــاج لاتجاه صحفى لو لم تكن هذه الأوســـاط موجودة ٠ وهكذا نجد أن الصحافة لاتلائم

الا فئات محدودة من العوالم الاجتماعية • وفى مجتمع ضيق حيث تكتسب كل المعرفة المتاحة بالتجربة المباشرة والشخصية ، لاينمو الاتجاه الصحفى أو لايكون الا جزءا من أدوات الادراك والمعرفة العادية لكل فرد من هذا المجتمع • ينطبق ذلك أيضا على درجة التغاير التى تميز مجتمعا من المجتمعات • لأنه اذا كان جميع أفراد مجتمع ما معدين ليفهموا بالتجربة المباشرة جملة أحداث هذا المجتمع وأنشـــطته ، فان الطرق العادية للاتصال الشخصى تكفى لنشر الأخبار فى هذا المجتمع •

وعندما يزداد النمو التقنى لجماعة ما الى الدرجة التى تصبح معها أغلب قواها ومشكلاتها الرئيسية بالغة التعقد وبالغة التجرد وبعيدة كل البعد عن الخبرة الفردية، تظهر حينئذ حاجة للتجسيد ولتجسيم المعانى ، حاجة الى تخليص الأحداث والمشكلات من تجردها وتعقدها (١)

يصبح الصحفى اذن ضروريا بعد وقوع بعض الأحداث الاجتماعية التى تتفق وظهور الحضارات الكبرى وزيادة التغاير فى المجتمع وتطور الاجراءات الادارية والعلميـــة والتقنية والصناعية المعقدة التى لايمكن أن تفهم على مستوى الفاعلية الا من محترفين متخصصين وذوى خبرة عالية •

والصحفى حين ينمى اختصاصه المهنى فى قطاع تقنى مجرد من المجتمع أو فى العديد من هذه القطاعات ، وحين يمزج هذا الاختصاص «بأهليته للاتصال»، فانه يجعل مجالات بعيدة أو معقدة فى متناول جمهور يمكن ان يعتقد أنه مجرد من التجربة أو من الأداة اللازمة لكى يفهم الأحداث والمشكلات مباشرة فى عبارات مناسبة • وغاية القول فالصحفى ضرورى أو يبدو كذلك فى مجتمع جماهيرى •

أما الوجه الثانى للوظيفة الاعلامية للصحافة فيتعلق باســـتخدامات الاعلام فى مجتمع ذى بعد كبير • لقد لاحظت الجماعات المنظمة والطوائف الصـــناعية والوكالات الحكومية والجامعات ومنظمات كبيرة أخرى ــ أو هى تلاحظ ــ أن نشر الاعلام مرتبط بأهدافها الذاتية ، العامة أو الخاصة • ولا بد لها من استخدام أخصائيين فى المسرحة وفى التجسيد وفى التبسيط وذلك لكى يقدموا بطريقة أكثر تأثيرا طلباتها الخاصـــة

---

(١) فى بحث لفرد شوتز بعنوان « المواطن الواسع الاطلاع • بحث فى التوزيع الاجتماعى للمعرفة» يصوغ هذه المشكلة بطريقة مختلفة بعض الشىء ولكنها مماثلة ، فهو يصف فيه ثلاثة نماذج مثالية ، الخبير والمواطن الواسع الاطلاع ورجل الشارع كممثلين لثلاثة أشكال متميزة للمعرفة الاجتماعية (راجع مجموعة المؤلفات ، المجلد الثانى ص ١٢٩ وغيرها) • ان بحثنا هذا عن الموقف الصحفى يتركز على بعض الاوجــه التى لايدرسها شوتز الا لماما • (راجع كذلك والترليبمان، «الجمهور الوهمى» نيويورك ، هاركورت وبريس وشركاؤهما ١٩٢٥) : « ان المجتمع الحديث لايراه أحــد وهو غــير مفهوم على الدوام وفى مجمــوعه • ان جزءا منه يراه جزء آخر • وان سلسلة من الاعمال تفهمها جماعة ، وسلسلة اخــرى تكون مفهــومة بالنسبة لجماعة أخرى » (ص ٤٢) •

لجماهير بعيدة . لم يكن اذن مصادفة أن تبدأ الدعاية كمهنة مع بداية الصحافة كمهنة . لأن استعداد الصحفى للاعلام ينمو ليستجيب الى الحاجة الى بديل لمصادر الاعلام حين تكون مصادر التجربة الصحيحة أو المباشرة غير متاحة . ولكن هذا الموقف الذى يكون فيه الفرد غير قادر أو معتبرا غير قادر على تقويم المشكلات والأحداث بمصطلحات الخبرة المباشرة ، هو على وجه الدقة الموقف الذى يسمح بالغش والدجل والخداع على أوسع مدى . ذلك أن المعالجة الواعية للاعلام لاتكون ممكنة الا اذا كان الوصول الى الاعلام الصحيح أو الى المصادر المباشرة للخبرة يشوبه تعقد الأحداث والمشكلات ، تشوبه تكنولوجيا مجتمع ما وأبعاده ومتغيراته وماشاكل ذلك (١) .

ان نمو مجتمع معقد يهيء للصحافة مجالها وعلة وجودها ، ولكن سوء استخدام الصحافة يقدم لها وسائلها .

التجسيد :

ولكى يتفادى الصحفى التجريد وبرودة الموضوعات الصعبة والمجردة ، يحاول ايجاد الصورة أو الشخصية التى تجسد آراءه ويتعامل مع الصورة أو الشخصية عوضا عن الفكرة ، مما يسمح له بالاتصال على مستوى يمكن فيه الحصول على فهم جمهور واسع من غير المحترفين . وغالبا تخضع مميزات الشخصية لمعالجة صحفية فتأخذ فى السيطرة على الفكرة . وهكذا تتغلب العادات الفردية والمغامرات الغرامية وشغل أوقات الفراغ والطابع الشخصى أو عدم وجود طابع لهذه الشخصيات على ما كان يجذب فى الأصل اهتمام الصحفى بهم (٢) .

---

(١) راجع ليوجيركو Leo Gurko فى كتابه «Heroes Highbrows and the Popular Minds» New York 1953

« ان التخصص الهائل الذى صاحب انتشار المعارف العلمية والتقنية قسم الحياة الى قطع أصغر واعطى أهمية متزايدة لحارس كل قطعة . وبعد وقت معين أصبح هذا الحارس ألخبير المحترف الذى بسبب معرفته التامة لمجال وحيد (وغالبا جهله التام بالباقى كله) يقيم نفسه واسطة بين مجاله والجمهور فى مجموعه . وان تركيزه على مجال واحد على حساب أى نوع آخر من المعرفة كان عنصرا هاما فى وظيفته كخبير » (ص ٢٣٦)

(٢) راجع Leo Lowenthat فى كتابه Biographies in Popular Magasines وقد أعيد فى American Social Potterns. تقديم وليم بترسن ، جاردن سيتى ١٩٥٦ ، ص ٧١ « تبدو السيرة الطريق الذى يستطيع انسان متوسط أن يوفق به بين اهتمامه بالاتجاهات الهامة للتاريخ وبحياة الآخرين الخاصة » . وأيضا فى ص ١٠٨ - ١١١ : « ان الدور الهام للتآلف فى كل ظواهر الثقافة الجماهيرية لن يكون قط موضع الاهتمام الكافى . ان الناس يشعرون برضى كبير من جراء الترديد الدائم للنماذج المألوفة .. لم يثر احد قط على هذا الامر .. وان التراجم تردد ما كنا نعرفه دائما.. » (ص ١١٠) .

وهكذا فى حالة أينشتاين ، قامت المعالجة الصحفية بلفت النظر الى أطواره الغريبة : تسريحة شعره ، كرهه لصابون الحلاقة ، ذهوله ، تفضيله ارتداء الملابس القديمة الخ ٠٠٠ ، كل ذلك على حساب تقديم مؤلفاته التى وصفت بطريقة مجردة تؤدى الى ألا يتمكن من فهمها سوى العدد القليل جدا من الناس (١) ٠

ان البحث عن المحسوس دعما يسهل فهمه ، المقدم بهذا الشكل من المعالجة الصحفية يؤدى الى « البطل » أو الى « الكوكب » اللذين يجسدان ويرمزان بحجم أكبر من الطبيعى الى مجال من الجهد ما كانت تتاح له فرصة البروز لولا هذه المعالجة ٠ فمنذ اللحظة التى يحاولون فيها جعل « الكوكب » بارزا ، تصبح صورة الشخص المقدم صناعية مؤقتا ككوكب ٠ ولابد أن تبرز فيها الأوجه الدرامية وبعض السمات التى تخلق خلقا فى الشخص نفسه حتى تستكمل صورته الصحفية أو بحيث تصبح صورته بعيدة تماما عن مميزاته وصفاته الحقيقية (٢) ٠

وبهذا المعنى ، لايكتفى الصحفى بوصف فعل المظاهر والحقائق المختفية وراءها بل يذهب الى حد خلق مظاهر أو مظهر الحقائق ٠

الصحافة فى العلاقات العامة

ابتداء من نموذج الصحفى الخالص كما وصف آنفا ، يمكن أن توجد سلسلة كاملة من المهن المعاونة نستطيع أن نجمعها تحت اسم الصحافة التطبيقية ، وهذه المهن تشمل وظائف الاعلام أى أخصائى الاعلام فى المنظمات الكبرى وأولا هؤلاء الذين يعنيهم هذا اللفظ فى الحكومات ٠ وهكذا يترجم أخصائيو الاعلام وثائق الاجراءات التى تكون فى الغالب معقدة وعلمية ومجردة ، والتى يقوم على تحريرها تقنيون شبه مثقفين ، فى صبغة درامية وشخصية ومحسوسة ، يمتاز بها النموذج الصحفى الأساسى ٠

ولكن يجب أن نضيف أنه بوصفه مستخدما فى مؤسسة متخصصة ذات مصالح خاصة فان عمله يفترض استبعاد الأخبار التى لاتخدم هذه المصالح المتخصصة واخفاء نواحى الضعف والوثائق الأصلية وصياغتها فى عبارات تسمح بمحاباة المصالح الايجابية لهذه المؤسسة ٠

---

(١) راجع Orrin E. Klapp, «Symbolic Leaders. Public dramas and Public Men, Chicago, 1964. Aldine Publishing Company.

وخاصة الفصل الثامن « نسيج البطل » ، ص ٢١٧ ، لوصف الدعامات الاخرى للرجال العظام : سترات الصوف المحبوكة ، النظارات ، الشوارب ، القبعات ، انابيب المواقد ، الخ

(٢) راجع « الزمن الذى ينقضى » Edgar Morin, «Le temps qui court 1957

وفى الحدود التي ترتضي الصحافة فيها هذه الاستخدامات ، فانها تهدم إحدى خصائصها الأصلية والأساسية وهى الكشف عن الخلافات بين المظاهر والتراكيب غير الظاهرة • وعلى العكس فانها تقلب حينئذ هذه العلاقة بما يسهم فى صنع مظاهر منتحلة وفى خلق حياة عامة مزورة •

وللأسف ففى مجتمع معقد تتعدد فيه مصادر الاعلام وتتنوع ، كثيرا ما يضطر الصحفى ومؤسساته فى وظيفتهما الأساسية القائمة على نشر الاخبار ، الى قبول الصحافة المنتحلة فى شكل « الأخبار المنوعة » ، والمقالات المكتوبة مقدما ، وذلك عوضا عن العمل الصحيح على الطبيعة الذى يجعل من الصحافة شكلا خاصا من الفن (١) •

وفى البحث السابق يطبع الاتجاه الصحفى من حيث المبدأ الصحافة بوصفها مهنة ، وان مفاسد الاتجاه الصحفى انما يعود الى تسخير الصحافة فى غايات مستقلة عن أهدافها الأصلية •

ولكن يجب أن لا ننسى أن الصحافة بالمعنى الأصلى للكلمة هى « طريقة تفكير » وأسلوب لرؤية العالم وابتكار صورة متميزة منه • وان مايهم فهمه هنا هو أن طريقة التفكير الصحفية يمكن أن تنفصل عن مهنة خاصة وتطبق على ميادين غير ميدان الصحافة نفسه ، أو ميدان مراقبة الاعلام وتشويهه البيروقراطى • ان تعقد وتغاير المجتمع الحديث وطابعه المجرد وفروقه الاجتماعية تجبر كل الذين يريدون الاتصال بالغير ممن ليست له التجربة المباشرة مع الأحداث أو مع المظاهر المبلغة على أن يقوموا بذلك فى أسلوب وفى طرق تنبع من الاتجاه الصحفى •

---

(١) راجع Daniel J. Boorstin «The Image, or what Happened to the American Dream New York 1962.

« ... ان نظامنا فى الاعلام العام بكليته ينتج على الدوام مزيدا من الاخبار « المصورة » ومزيدا من الاحداث المنتحلة .. ان البلاغات الصحفية التى تخرج يوميا فى رزم كاملة من مكتب اعضاء الكونجرس ومن سكرتارية الصحافة الملحقة بمكتب الرئيس ومن مكتب الملحقين الصحفيين لدى المؤسسات والجمعيات الخيرية والجامعات لتشكل أنواعا من تشريعات الكونجرس التى تغطى كل الحياة الامريكية . ولكى يكفل لحدث «غطاء» من الاعلام .. يجب توزيع بلاغ صحفى طبقا للاصول المرعية .. هذا «الخبر المنوع » هو خبر غير ناضج يجب التمكن من حفظه الى الوقت المناسب .. يكتب النص فى الماضى ولكنه يصف فى العادة حدثا لم يقع بعد عندما يتم توزيع « الخبر المنوع » .. ان نادى الصحافة الوطنى (ذى ناشيونال برس كلاب) لديه فى قاعات اجتماعاته فى واشنطن صندوق كبير يملأ يوميا باخر البلاغات الصحفية بحيث لايضطر الصحفى الى المرور بالمكاتب التى توزعها . وفى سنة ١٩٤٧ كان يوجد من وكلاء الصحافة الحكوميين المناط بهم اعداد البلاغات الصحفية ضعفا عدد الصحفيين الذين يقومون بجمع هذه البلاغات (ص ١٧ — ١٩) •

وكما قلنا ، فأن هذا الأســلوب وهذه الطرق تقوم على اســتخدام المسرحة والتجسيد والمحسوس والتبسيط والتصور ٠٠ الخ (١) ٠

المعالجة الصـــحفية

ان استخدام التقنيات الموضوعية للصحافة يمكن أن ينفصل عن الصحافة المهنية بمعناها البدائى والأصلى ٠

وحين يحدث ذلك يظهر ما نسميه بالمعالجة الصحفية التى تســـتخدم مناهج الصحافة ــ تجسيد ، تبسيط ، بحث عن الصورة ، الى جانب اعلام غير مفهوم ــ وذلك فى منشآت غير صحفية ٠

وهكذا كلما ظهرت فكرة أو نظام أو انجاز تكنولوجى أو عمل فنى أو شكل جديد ، فى مجتمع مشبع بالتقاليد الصحفية البالغة التطور ، لايلبث هـــذا الجديد أن يكيف ثانية وأن ينشر ويوزع بعد أن يخضع للمعالجة الصحفية ٠

فالفن الحديث أو تجديد ما يطرأ على الفن الحديث ، يحصل فى شكل صحفى بعد فترة قصيرة نسبيا على المغناطيسية والغرابة والجاذبية التى يتميز بها نظـــام « البطل » أو « نظام الكوكب » ٠

ونظرا لجاذبية المعالجة الصحفية بالنسبة لجمهور أثير اهتمامه وقلت حدة هــذا الاهتمام بهذه المعالجة ذاتها ، فانه من الأرجح كثيرا أن يتمتع الحدث الجديد بشهرة تكاد أن تكون وقتية بفضل المعالجة التى خضع لها ، وفى نفس الوقت بفضل وسائل النشر الجماهيرية التى تحظى بها هذه المادة ٠

واليكم النتيجة التى تترتب على ذلك : انه من الممكن أن نبرهن أنه خلال المائة سنة الاخيرة قصرت بلا انقطاع المدة التى تفصل بين ظهور أسلوب أو شكل أو تجديد وبين قبول الجمهور له بحيث أصبح من المؤكد فى الوقت الحاضر أن يسرع الناس الى

---

(١) راجـع I. Gerver et J. Bensmen, «Toward 2 Sociology of Expertness» in Social Forces Vol. XXXII No. 3, Mars 1954.

« ان الخبراء الرمزيين يستطيعون أن يجسدوا ما هو معقد ليس فقط بالنسبة للجمهور البعيد ، ولـكن ايضا بالنسبة للناس الذين من وسطهم ان كانت ظروف الاتصال معقدة ، بما فيه الكفاية بحيث لايمكن أن يفهم تعقيدها فى الحال ودون سواء بمصطلحات تجربة يشتركون فيها مباشرة ٠٠ وفى عـدة ميادين نشاط فان الخبير الرمزى لايكون خبيرا حقيقيا ولكنه يبدو كخبير ٠ ولا يكون الخبير الرمزى بالضرورة شخصا حيا فريدا ، قد يكون مجموعة تقويمات وتعريفات تقليدية تتجسد ٠ كما حـــدث ذلك بالنسبة لرامبراندت وبيتهوفن وباخ وفان جوخ ٠٠ وكوبرنيك وغاليليو ٠٠ » (ص ٢٢٧ ــ ٢٢٨)

قبول تجديد ما اذا ماخضع هذا التجديد للمعالجة الصحفية ، بل غدا من الممكن أن يقبل هذا التجديد قبل أن يفهم جيدا ويطوره صانعوه أنفسهم ، ان الفرد بوصفه عاملا أو مجددا يجتذب فى عالم الكواكب والشخصيات العامة قبل أن تكون لديه فسحة من الوقت يقيم فيها تجديده وينقده ويطوره (١) • وثمة احتمال كبير أن تعمم أفكار طيبة أساسا أو تفرغ أو تطهر قبل أن يبدو معناها الحقيقى ، أو ان كانت الأفكار العامة ناقصة فانه يمكن الحصول صناعيا على التأثيرات نفسها بارادة اختيارية للتجريب والاثارة •

وان صدق ذلك على المجددين فانه يصدق أكثر على الجمهور الذى يجب أن يكون مستعدا ، اذا اراد أن يكون « على علم » ، لأن يقفز من نهج خلقته الوسائل الصحفية الى نهج آخر ، والأفضل أن يحدث ذلك قبل أن يتم الوصول الى قمة كل نهج تال • ولابد للفنان أو المجدد أن يتعرض لخطر أن يبطل نهجه قبل أن يـكمل عمله • واذا كانت لشـهرته الجديدة قيمة فى نظره ، فعليه أن يتعلم ترك ما يفعل وما يصبح قديما كلما ظهرت أساليب جديدة • ومن هذه الوجهة فان مخاطر النجـاح الذى تم الحصول عليه بوسائل صحفية تكون أضخم من مخاطر الفشل (٢) •

وثمة أشكال كثيرة للمعالجة الصحفية • وأكثرها وقوعا يقـوم على مزج بين المعالجة الصحفية نفسها والمعالجة الأكاديمية ، هنا ينبغى على الصحفى المفسر أن يشرح فى عبارات صحفية كيف تم فى الواقع عمل جليل فى حد ذاته ، أو كيف يمكن لهـذا العمل أن يفهم فى عبارات أسهل ومبسطة • انه مصدر صناعة التعليق • ولكن لايكفى أن يبسط الصحفى (أو اللاصحفى صاحب المعالجة الصحفية) ويشرح العمل الأصيل • ان عليه أن يضيف عناصر الى هذا العمل والى التعليمات السابقة ليبرر تعليقه ذاته • فنشهد حينئذ «تحسينات» صحفية للعمل الأصيل بيد أفراد غير قادرين على القيام بهذا العمل ولكنهم يعرفون كيف يتحدثون عنه •

---

(١) Bernard Rosenberget Norris Fliegel «The Vanguard Artist Portrait and Self Portrait, Chicago, 1965.

« ان عددا كبيرا جدا من الشبان عندما يصعدون الى قمة الشهرة بسرعة فائقة ، يكونون بلا خبـرة . ان طريق النجاح سبيله التدريب الهادىء وفترة طويلة من العمل المنظم بعيدا عن هتافات الجمـاهير . وللحيلولة دون أن يسبقنا الوقت ، يجب أن يتوفر الاعداد المناسب وأن يتاح للتقدم الوقت الـكافى له . ان الشبان المتعجلين الطموحين كل الطموح منذ البداية والذين ينجحون فى السوق يجدون صعوبة فى مقاومة الدفع الذى يحيط بهم » (ص ٥٧ ـ ٥٨)

(٢) راجع بروزنبرج وفليجـل « يعتقـد الفنـانون انه لـكى يصـل عملهم الى جمهـور ذى اهمية ما ، يضطرون الى اتخاذ طرق سلوك غريبة عنهم ، ان عليهم ان يقبلوا ايضا ان جزءا كبيرا من اعمالهم سوف يقتنيه مشترون لايقدرونه من الناحية الجمالية . وهم يكونون سعداء حين يحـدث غير ذلك ، ولكنهم نادرا ما يستطيعون ان يعتقدوا ان الامر كذلك . وقليل من هؤلاء المقتنين يمـكن ان يمثلوا « الشارى الكامل » . ان حجم مجموعة المشترين غالبا ما يمنع المصور من ان يعـرف من هـو « زبونه » .

الاتجاه الصحفى خارج الصحافة

نظرا لأهمية المعالجة الصحفية بوصفها نشاطا متميزا عن الصحافة فى ذاتها ، كان من الضرورى أن نفحص استعمال الاتجاه الصحفى بواسطة غير الصـــحفيين فى مواقف غير صحفية . ان أبسط تطبيق لهذه الطريقة ربما كان قيام أحد العلماء أو الخبراء باستعمالها أمام أترابه الذين يستطيع أن يعتقد أن لديهم خبرة وتقنية ومعارف لاتتطلب تبسيطات الاتجاه الصحفى . ان السبب الذى من أجله يتكرر هذا الأمر كثيرا ليس بينا فى الحال . ربما فرضت طرق التفكير المكتسبة فى العلاقات مع الجماعات الخارجية وجودها بحيث يقدم المتخصص أعماله لمتخصصين آخرين فى أسلوب كان فى الماضى يعد غير مناسب .

ومهما يكن سبب هذه الظاهرة ، فان المتخصص كمستقبل لخبر يجب أن يأخذ حذره أمام الأشكال التى يتخذها هذا الخبر والتى يمكن أن تضلله ، على الرغم من أنه هو بذاته كناشر أخبار ، يستخدم الأشكال نفسها .

ان السنة الصحفية فى تقويم الكتب ترتبط بهذه النشاطات ، انها وسيلة مقدمة للتغلب على كتلة المعلومات البالغة الضـــخامة التى نجـــدها فى المجلات التقنية والمتخصصة . ان هذه الكتلة من الضخامة بحيث ان المتخصص يكون مضطرا فى غالب الأحيان الى الاشتراك فى المجلات النقدية والى الاتجاه الى خدمات نشرات تقدم معلومات متخصصة والى خدمات بعض الطلبة من ذوى المؤهلات للحصول على ملخصات وعلى موجزات وعلى منتخبات كتب وأبحاث ومقالات لم يتمكن هذا المتخصص من قراءتها .

ان الاتجاه الصحفى لمزدوج : فهو ذو طابع نوعى أمام معطيات عمل علمى وطابع نوعى أمام الجمهور (١) . ويعامل الجمهور كمستهلك ، أو بمعنى آخر يجب على المعرفة المنشورة أن تثير وتحث وتبهج وتسلى وتفاجىء وتوقظ اهتماما مؤقتا وذلك دون أن تستدعى جهدا من جانب المستهلك . ولكن الاتجاه المثقف الصحيح يجب أن يعامل المبتدىء كمنتج . يجب أن يعلمه كيف يتعامل مع التعقيد والصعوبة والطابع المجرد وما الى ذلك ، ومع معطيات مادته العلمية فى عبارات خاصة بهذه المادة . وحين يســـهم الاتجاه الصحفى فى عملية التربية ، يعامل المنتج الاحتمالى كمســـتهلك ، وان ادراكه لمادة تخصصه يشوه بادخال عناصر درامية فيما يمكن أن يكون عملا تقنيا جادا ومتصلا وممتدا وخاليا من التمسرح . ان توجيها مهنيا مؤسسا على انتظار الدراما فى العمل يؤدى الى خيبة الأمل .

والأهم من ذلك أيضا هو أن استعمال المسرحة الذى لايمكن فصله عن الاتجـــاه الصحفى يؤخر دخول المبتدىء فى العمل ذاته بحيث يعلم بصـــعوبة ماهية العمل .

---

(١) راجع بنسمان وليلينفلد ، مصدر سابق .

ولنكرر مرة أخرى قولا معادا ، فانه يعلم عن موضوع العمل ، بدلا من أن يعلم العمل نفسه (١) ٠

لقد درسنا أولا الاتجاه الصحفى من وجهة جذوره الاجتماعية ، ثم فحصنا « نزوح » الاتجاه الصحفى خارج الصحافة المهنية بمفهوم المعنى وظهوره فى ميدان التعليم ، وأظهرنا أنه أحل محل المناهج التعليمية والتدريسية الأكثر تقليدية التى تتعلق بالتدريب العملى ، مناهج تقديم تتعلق بنشر المعرفة بين الجميع ٠

الصحافة فى العمل الفكرى :

ولندرس الآن الاتجاه الصحفى من ناحية أصل وتكوين المؤلفات العلمية والفلسفية والفنية والأبحاث التاريخية المتعمقة ٠

ولسوف نميز هنا بين نموذجين مثاليين : المضمون الذى يستجيب الى « ضرورة داخلية » والمضمون الذى يستجيب الى « ضرورة خارجية » ٠ وان المضمون الذى يستجيب لضرورة خارجية هو الذى لم يتكون الا ليصادف مصيرا وليشغل مكانا فى صحيفة أو فترة من الزمن خلال برنامج اذاعى مثلا أو مؤتمر شعبى ٠ أما المضمون الذى يستجيب الى ضرورة داخلية فانه يشمل كل الكتب والاعمال الفنية والتقارير العلمية وما الى ذلك التى أعدت خارج كل انشغال فى شأن مشكلات داخلية أو تجريبية أو نظرية ، خارج مدركات أو ارتجالات المؤلف أو الفنان الذى يعتبرها محركات أولى والذى يرى أنها جديرة بدراسات وشروح لاحقة ولكنها لم تتولد ، بمفهوم المعنى ، من ضغوط خارجية مباشرة ٠ ان الاهتمام بالمضمون وحده يؤدى الى العمل الذى ينبغى القيام به ٠

ان أعظم مركبة للنشاط الصحفى واتجاهه هى ، على العكس ، ضرورة كتابة شىء ما فى سبيل مصير ، وشىء ما يكون له حجم كاف لشغل الفراغ أو الزمان المخصص له ٠ وهكذا على حد قول كارل كراوس ينبغى على الصحفى أن يكتب حتى لو لم يكن لديه

---

(١) راجع William James, «The Principles of Psychology» New York 1896.

« يمكن ان نميز ، بصفة عامة وعمليا نوعين من المعرفة : نستطيع أن نسمى الاول معرفة والآخر معرفة عن موضوع .. عند العقول القادرة على الكلام ، يوجد حقيقة نوع من المعرفة بخصوص كل شىء ، انهم يستطيعون على الأقل أن يصنفوا الاشياء ويحددوا لحظة ظهورها . ولكن على وجه العموم كلما قللنا من تحليل شىء قل عدد العلاقات التى ندركها فيه وقل ما عرفنا عن موضوعه ، وكلما كانت دالتنا عليه من طراز المعرفة المباشرة . ولهذا فان نوعى المعرفة ، حين يمارسهما العقل البشرى ، يكونان الفاظا نسبية . أى أن الفكرة نفسها عن شىء يمكن أن تسمى معرفة فى موضوع هذا الشىء بالمقارنة بفكرة ابسط او معرفة مباشرة لهذا الشىء مقارنة بفكرة أوضح وأبين من هذا الشىء (ص ٢٢١ ــ ٢٢٢) .

شيء يقوله وأن لدى الصحفى شيئا يقوله لأن عليه أن يكتب (١) • وأمام هذا القسر ، اذا وجد الصحفى شيئا ما يقوله ، تم كل شيء على ما يرام والا فان عليه أن يلجأ الى وسائل متنوعة •

واجدى هذه الوسائل هى أن يولى وجهه شطر هذه المجموعات من الأعمال التى قلنا عنها آنفا انها تستجيب « لضرورة داخلية » وأن « يجعلها فى متناول الجميع » وأن بشرحها وأن « يوضحها » وأن يجعلها مسلية ودرامية وما الى ذلك • ويمكن كذلك أن نذهب الى أبعد من ذلك ، وخلال هذه العملية ، يمكن « تحسين » هـــذه الأعمال بتخليصها مما يرى أنه يضايق الجمهور أو أنه فقط يسئمه أو أنه يهدد هذه الجماعة ذات المصلحة أو تلك • هنا يعمل الاتجاه الصحفى فى الواقع كوسيط بين جماعتين : ففيما يختص بالجمهور ، يقرر ما هو قادر على فهمه أو جدير بهذا الفهم ، وفيما يختص بمنتجى الاعمال ، فان الاتجاه الصحفى يقول لهم ما يمكن أولا يمكن أن يناسب جمهورا لايخصه الا بتعليم جد سطحى وبقدرة على الانتباه جد محدودة • واذا استجاب منتج إعمال لضرورة داخلية باتخاذه هذا الاتجاه الصحفى فقد يجد نفسه مدفوعا الى أن يضفى على أعماله شكلا يختلف عن ذلك الذى كان يختاره لو لم يعتمد على بعض ردود أفعال الجمهور • ان الحد الذى يبطن عنده الاتجاه الصحفى يمكن أن يستخدم اذن فى التمييز بين طبقات مختلفة من العمل الفكرى بعضها عن بعض ، ابتداء من المؤلفات النظرية أو الفلسفية والأعمال الفنية الكبرى والدراسات النظرية الأصيلة من ناحية حتى الأعمال التعميمية و « المداخل » الى هذا العلم أو ذاك والكتب التى تقول كيف يصنع هذا الشيء أو ذاك والمنتخبات الأدبية والمختصرات وغيرها من ناحية أخرى •

ان التمييز الذى اجريناه بين الأعمال التى تستجيب لضرورة داخلية والأعمال التى تستجيب لضرورة خارجية ، يرسم فى الواقع قطبى سلسلة مستمرة ، ففى طرف المجموعة يوجد ، على حد تعبير شوتز ، الخبير • وفى الطرف الآخر الصحفى أو الداعية • ونموذج المواطن الحسن الاطلاع الذى يصفه شوتز ، يوجـــد فى مكان ما بين الطرفين (٢) •

---

(١) راجع Karl Kraus, «Beim Wort genommen» P. 212
« ان هذه السمة للاتجاه الصحفى بين عدد كثير من سماته تمت دراستها أولا فى الكتابات الجـــدلية والهجائية لكراوس ، مثلا فى : ان المؤرخ ليس هو فى الغالب الا صحفيا ينظر الى خلف » • المصدر السابق ص ٢١٥ ، الناشر Kosel Verlag ، ميونخ عام ١٩٥٥ •

(٢) راجع Schutz, op. cit. p. 122 ... 123, et 132 ... 133.

صحافة ودعايـــــة :

ان جانبا من المعالجة الصحفية يقوم على تقديم الحجج التى تساند أو تعارض فكرة أو مشكلة ما بحيث يستطاع فهمها وقبولها دون الدخول فى التعقيد وفى الطابع المجرد وفى شرعية المشكلة فى شكلها الاصيل ، وفى مجتمع معقد تعـالج اغلب الخـلافات حسب تعقد الطرق القـانونية والتقنية والادارية والتنظيمية والاقتصادية . ان حق الخصوم الحقيق لا يظهر فى الحال ، ذلك أنه ، بصـفة خاصة ، غالبا ما تظهر خلافات رئيسية وكأنها مشـكلات قانونية أو تقنية ، غير مضرة نسبيا ، ولكنها مجردة .

ان الجدل فى مستوى تجريد المشـكلة الأصلية يصعب تقديمه فى الغالب ، خصوصا أمام جمهور غير مختص لانه صـعب الفهم ،فمن الصعب أن يوقظ حوله شعور الاخلاص والهوى ، حتى لو تعلقت به حياة وتطور أنظمة وجماعات اسياسية فى المجتمع . ان المعالجة الصحفية لهذه المسائل تقدم حـلا للمشكلة . وتسـتطيع تقنيات التجسد والتبسط والتصور والحيل اللغوية والتشويه الصحفى للقصـة ، فى اصعب الحالات ، أن تتيح وصفا للأمر دون الالتجاء للتفكير المنطقى قط . ان اختيار الكلمات والشحنة التأثيرية لهذه الكلمات والانزلاق الناتج عنمعالجة الأحداث والتقديم المتعاطف أو اللامتعاطف مع الشخصيات ، كل ذلك يميز تطبيق المعالجة الصحفية على المشكلات المعقدة . ان التفكير المنطقى يكون موجودا فى الطريقة التى تعالج بها القصة بدلا من أن يكون فى التفكير المنطقى ذاته .

ان البناء المحاجى أى ما يتخذ الشكل الأيديولوجى للحجة ، يلقى به جانبا فى هذا الاتجاه ، ذلك ان الشكل الايديولوجى او الشكل المنطقى للتفكير ينبه الفـرد إلى التفكير فى أنهم سيقدمون له حجة . فهو يدفع لاتخاذ اتجاه نقدى ينبغى أن تخضع الحجة فيه لنقد تجريبى أو منطقى أو لمجرد مقاومة عاطفية . ان الشـكل المحاجى فى طبيعته الأساسية يفترض أن « الشخص الآخر » مستعد لمقاومة الحجة ويدعوه لصياغة حجج مضادة . وعندما تستخدم أشكال المعالجة الصحفية هذه لا يوضع الفرد فى موقف جدلى ولا يحذر ولا ينبه ولا يدعى الى استخدام قدراته النقدية . ان الحجة تقدم بحيث لا يعرف الفرد أن قولا قد تم اثباته بالبرهان . واذا نجح التقـديم ، قبل البرهان كسلسلة من الوقائع ومن الفروق العـاطفية اليسيرة أو كوافع . لقد زوروا هذا البرهان . ان هذا الشكل من المعالجة الصحفية يجد تعبيره الأكثر تركيزا فى « الاعلان البيئى » وفى المجلات مثل « تايـم(١) » وفى الحملات الاعلانية غير المباشرة . ولهـذه السبب بطل العمل بالايديولوجية

---

(١) مجلة امريكية اسبوعية سياسية مصورة توزع فى أكثر بلاد العالم (المترجم) .

كشكل للجدل فى عالم تحل المعالجة الصحفية فيه محل المعالجة الأيديولوجية أو الجدلية للمشكلات موضوع المناقشة (١) .

الصحافة والعلاقات العـــامة :

لا يمكن ممارســـة العلاقات العامة الا فى جـــو من الابتـــكار الدائم . ولكى تستطيع منشأة ما أن تنشر بانتظام بلاغات صحفية ، لابد لهـــا من أن تنتج فى فترات متقاربة نسبيا ، قصصا مثيرة عن الأحداث الجديدة التى وقعت لها ، اذ ليست الأنشطة الروتينية هى التى تقدم مادة اعلامية فى مؤسسة ناجحة . وحينما ترغب مؤسسة ما فى مزيد من الشهرة ، فان الاغراء فى زيادة عـــدد مبتكراتها التقنية يكون كبيرا . وان المخترعات التكنولوجية التى تتمتع بعطف الجمهور مثل العقول الالكترونية ذات القـــدرة العالية وآلات التعليم والتعليم الجماعى أو تحليل الأنظمة ومنجزات أخرى كثيرة من نفس النوع ــ على الرغم من قيمتها الذاتية والخارجية ــ قد تتعرض لخطر التطبيق تطبيقا سيئا أو على الأقل ، لأن تستخدم لأغراض ليست تقنية تماما ، وذلك بشكل أوضح بحيث تكون أكثر خضوعا لضرورات العلاقات العـــامة .

ومن أحداث هذا النوع ، انشـــاء الكراسى الجامعية ذات المرتبات الضخمة التى يعين عليها العلماء النوابغ خصوصا من أجل رفع « صورة » المؤسسة ، ووضع برامج دراسية خاصة ومحاضرات وانشاء دبلومات خاصة ومعاهد مختلفة للأبحاث .

الصحافة والنشر :

لقد درســـنا آنفا « هجرة » الاتجاه الصحفى خارج الصـــحافة الى ميادين أخرى . ولسوف نرى باختصار نتائج هذه الهجرة على نشر الكتب . ان الاتجاه الصحفى يجد نفســـه فى ميدان النشر فى ثلاثة أماكن رئيســـية ، فقد ترغب دار للنشر فى أن تملأ كتالوجها فيما يتعلق بهذه المـــادة العلمية أو تلك ، لأسباب تتصل

---

(١) ان احدى النتائج الثانوية لهذه العملية هى ظهور لغة صحفية خاصة ، توارب لتعبر عن المعنى، وتحيط الكلمات المألوفة بمعان عامة جديدة تأثيرية للتعبير عن معنى مضاد للمعنى المعطى لها تقليـــدية، وفضلا عن ذلك فقد ابتكرت لغة واملاء وكلمات جديدة وحذفت حروف الخ . مما يحط من المـــارسة التقليدية للغة ويدخل اشكالا جديدة من العجمة . ولكنه يسهل المعالجة الصحفية للاحداث كما وصف آنفا . راجع على سبيل المثال دوايت ماكدونالد Against the American Grain !الناشر فنتايج بوكس ، نيويورك ١٩٦٢ ص ١٢ ــ ١٣ وكذلك الابحاث المنوية The String Untuned ص ٢٨٩ وما بعـــدها و The Decline and Fall of English ص ٣١٧ وما بعـــدها ، راجع كذلك كارل كراوس فى كتابه : Untergang der Welt durck Schwarze

بالمنافسة ، وهكذا تتمكن من أن تطلب أو تنتج كتبا (تسمى غالبا « لا كتب » فى التجارة) ما كانت لتظهر فى ظروف أخرى . ويدخل فى هذه الفئة الكتب المدرسية والمداخل المعينة للتجارة غير المتخصصة ، فالأمر يتعلق هنا بمنتجات تستجيب لضرورة خارجية . والمكان الآخر الذى نلاحظ فيه الاتجاه الصحفى فى ميدان نشر الكتب يكون فى الغالب بين الناشرين ، فالناشر الذى يتلقى مخطوطا من خبير فى هذه المادة العلمية أو تلك ربما يرى أن غموضه وتشوش اسلوبه يتطلبان اعادة ترتيبه وتوضيحه . وعليه فان الناشر يخضع لنموذج شوتز للمواطن حسن الاطلاع ولكن الناشر يستطيع ان يتبع نموذجا آخر تم وصفه آنفا ، وهو القائم على توقع استجابات الجمهور لأعمال أصلية أو جدلية أو صعبة أو مقلقة بشكل أو بآخر . ويستطيع ان يتدخل بحذف جزء من الكتاب او تشويهه او الغائه . ويمكن ان يحدث ذلك ، بصفة خاصة ، حين يتعلق الأمر بترجمة مؤلف هام الى الانجليزية سواء كان من لغة أجنبية أو من رطانة تقنية ، وفى هذه الحالة كثيرا ما يعلن الناشر انه ألغى جزءا كبيرا من النص لا يناسب القارىء الانجليزى . ان الناشر يتخذ هنا ، وهذا واضح ، الاتجاه الصحفى .

والمكان الثالث الذى يمارس فيه الاتجاه الصحفى فى ميدان نشر الكتب نجده فى قطاع كتب المراجع . ان نمو عالم تكنولوجى معقد وعالم الصحافة بكل معانى الكلمة ادى الى ضرورة الاعلام عن مواد علمية وميادين لا يمكن ان يطلب من فرد أن يعرفها مباشرة . ان كتب المراجع « للمواطنين الحسنى الاطلاع » يمكن ان تخدم هدفا شرعيا جدا ، ولكنها يمكنها ايضا ، وبلا شك ، أن تخدم أغراضا صحفية وأن تسمح لناشر المعارف بين الجماهير وللمعلق وللمحرر وغيرهم بأن يرتدوا رداء التعمق العلمى الذى لا يملكونه . ان تأثير الصحافة لا يظهر فقط فى تكاثر دوائر المعارف والمؤلفات الوجيزة وكتب المراجع ، ولكن ايضا فى الدقة التى تراجع بها كل هذا المطبوعات وتزاد لتشمل الأحداث الأخيرة بحيث تصبح شبيهة بالدوريات ، هذا على الرغم من أن هذه الزيادة قد تتعلق بأحداث جانبية أو ذات اهمية عابرة بالنسبة لمجال خاص .

بقى أن نبحث فى وظيفة اخيرة للاتجاه الصحفى ، لا كما يطبقه الصحفيون فحسب ، ولكن كما يطبقه العلماء فى تقديمهم لمادتهم العلمية ايضا .

فى وقت من الأوقات ، ايا كان ، وفى أى ميدان من ميادين البحث يكون مجموع المعارف التى تخص هذا الميدان مجزأ وغير منظم وفى أغلب الأحيان مشوشا . ان عددا كبيرا من الأفراد يبحثون فى مجموعة من المشكلات غالبا بلا روابط بينها ، كما أن عددا آخر يعمل فى حدود تقاليد فكرية غالبا ما تكون متنافسة أو متعارضة أو غير منسقة . ان قدرا سديدا من المعارف المتعلقة بهذا الميدان او ذاك قد يقلل من أهمية هذا الميدان فى نظر الذين يفترضون بسيرا موحدا ومنظما متطورا للعلوم .

وللمعارف .. وحين تتغلب الأهداف الاعلانية على غيرها ، فان تقديم الحالة التى يوجد عليها الفن أو العلم يتطلب أو ينسق وينظم ويمسرح ويوحد بحيث يكون للمحترفين جميعا فئتان من المعطيات فى ميدان نشاطهم .

١ ـ توافق الفئة الأولى معرفة داخلية وتشمل المعطيات العملية العمل فى الداخل .

٢ ـ والفئة الثانية ، وهى تكامل كاذب للمادة العلمية ، معدة لأن تقدم لغير المختصين وللمبتدئين ولعامة للاداريين الخارجين الذين يؤثر نشاطهم على هذه المادة العلمية .

وقد يبدو ذلك كضرورة أحيانا : الا أن المجهود الذى يبذل من أجل معاملة هذا النظام الكاذب كأنه حقيقى يؤدى فى الغالب الى تزوير المادة العلمية كلها . وفضلا عن ذلك ، فحين تمتلىء احدى المواد العلمية بالمنازعات والاختلافات من وجهة النظر التى تميز بالضرورة البحث عن المعرفة القائمة على حرية البحث واستقلال التفكير ، فان مشكلة التوجيه ، داخل المادة العلمية ، نحو وجهة النظر هذه أو تلك لهامة لا بالنسبة للجمهور وللمبتدىء فقط ، بل بالنسبة للمحترف كذلك . فالعالم الصحفى فى الداخل يعمل هنا بقيامه بوصف الاتجاهات التى يستطيع الفرد فيها أن يجد طريقا للتعبير عن تعلقاته والتزاماته . وهو يصف فى آن واحد « الأعداء » مع وجهات النظر والعقائد التى يجب تجاهلها واحتقارها والتى لا يحق لها الا أن تنال قدرا قليلا جدا من الاهتمام .

ان صحافة من هذا النوع ضرورية للتنظيم السياسى لمادة علمية عقلية ، ويمكن مقارنتها ، داخل هذه المادة العلمية ، باستخدام الصحافة كجهاز لمراقبة الاعلام وتحريره بايدى أخصائيى الاعلان والاعلام فى البيروقراطيات الكبرى .

بيد أن المعالجة الصحفية تتيح توفيقات أخرى مع المعرفة ، والتوفيق الغالب هو الشارح الصحفى الذى ينبغى عليه أن يبين بعبارات يفهمها الجميع كيف تم بالفعل عمل له قيمته الخاصة أو كيف يمكن ان يقوم هذا العمل بعبارات أسهل ومبسطة ، الشىء الذى يؤدى كما سبق أن أشرنا الى صناعة التعليقات حيث يلتصق كل تعليق على عمل أساسى ، بتعليقات أخرى بحيث تضيع الفكرة الأصلية ، التى اثارت جاذبيتها التعليقات وذلك فى خضم كتلتها الكلية . ولكن لا يكفى للصحفى (أو للعالم غير الصحفى الذى يطبق المعالجة الصحفية) أن يبسط وأن يشرح العمل الأصلى ، بل يجب عليه أن يضيف عناصر الى العمل الأصلى والى التعليقات السابقة ليبرر تعليقه الخاص ، غالبا «على أساس معرفة أحدث» وينجم عن ذلك « تحسينات » فى العمل الأصلى يقوم بها أفراد ليسوا على مستوى العمل الأصلى ولكنهم يعرفون الكتابة عنه .

وتوجد طريقة متعلقة بالادراك تشكل حاليا اهم جزء من الصناعة النقدية والتى يمكن أن نجد أصلها فى الممارسة الصحفية ، وهى اقامة هيكل داخل احدى المواد العلمية يضم أهم شخصياتها التاريخية . ان نظرة اجمالية تلقى على احدى المواد العلمية تبدو غالبا فى نظر المبتدىء أو غير المختص كزيارة لهذا الهيكل بصحبة دليل ، يشاهد خلالها بعض الشخصيات ويستمع الى وصف سريع لحياتهم وأعمالهم تستخدم فيه تقنيات التجسيد والتبسيط وما الى ذلك ، والى تقدير أفضالهم النسبية ، وهكذا توضع شخصية فى المكان الرئيسى من الهيكل والشخصيات الأخرى فى أجنحته الثانوية ، حسب حال كل منها ، كما يحدده الناقد صاحب هذا الوصف . وهكذا تعطى لنا قيمة الشخصيات وقد ارتبطت بمادة علمية : فهذه الشخصية هى الأعظم والأهم وتلك تأتى بعدها ثم تتبعها هذه وهلم جرا . ان هذا الاسلوب القائم على تحديد الأفضال النسبية للرجال المرتبطين بمادة علمية ، كما لو كان هذا التحديد نهائيا ، لاسلوب ذو طبيعة صحفية ، انه فى جانبه الأكبر تقليد لصفحات الرياضة فى الجرائد حيث تحدد قيمة الرياضيين والفرق الرياضية اما حسب مكانتهم فى مباريات الموسم واما بمقتضى الأقيسة الاحصائية طويلة المدى واما حسب استبارات الراى .

ان صناعة التعليقات هذه لمفيدة ايضا للتنظيم السياسى لمادة علمية ذهنية حين يكون الأمر متعلقا بالاعتراف بعمل أصيل أو بعمل يمثل قيمة ويأتى من مدرسة فكرية منافسة أو معادية . وان كانت المفاهيم أو الاكتشافات موضوع البحث ضرورية حقا ، فيمكن الحصول عليها تدريجيا وسرا وعلى الا يشار عرضا على انها مصادر وحيدة لعلماء مدرسة فكرية حليفة لا الى علماء مدرسة معادية .

عرضنا فى الحالات التى سبق ذكرها لتطور النموذج الفينومنولوجى لاتجاه ما من حيث ارتباطه بشكل خاص من المعالجة الصحفية المتعلقة بأنماط معينة من التركيبات الاجتماعية . ويولد الاتجاه الصحفى من الحاجة الى تقديم دورى لصور العالم الى جماهير بعيدة غير قادرة على فهم بعض الجوانب الضرورية لعالمهم فى حدود تجربتهم المباشرة . ان الصحافة بوضعها الأشياء على افضل وجه ؛ تؤدى وظيفة بالغة الأهمية فى خلق صور العالم واعادة خلقها وابرازها . انها تعدل من قيم العالم ، حتى لو كان هذا التعديل منصبا على عملية التقديم التى تحاولها .

ولكن التطور ذاته للفنون والتقنيات التى توضح هذه الصور يبين كيف يستطيع هؤلاء الذين يستخدمون الاتجاه الصحفى لأغراض غير صحفية أن يستعملوا هذه الصور وان يسيئوا استعمالها ، وذلك فى مجتمع تكون الحاجة فيه الى الاعلام شديدة الى الدرجة التى تبطل فيها هذه الحاجة اذا أشبعت ، فالاعلام يغرق الجمهور بسيله .

ولكن فضلا عن فرط الاعلام المقدم للمجتمع فى مجموعه ، نلاحظ أن المعالجة الاعلانية قد دخلت فى عدد كبير من الميادين الاخرى ، بل انها يستخدمها اشخاص لا يعون ، مهنيا ، الاتجاه الصحفى ، وهكذا حين تدخل المعالجة الصحفية بسعة فى الانظمة الرئيسية لمجتمع ما وفى طرق تفكيره فان خلق الصور والمظاهر يصبح عملية مستقلة تكون فيها أنظمة المجتمع وتقنياته ومناهجه ثمرة الجهد المخصص لصنع الصور .«

فالصورة لم تعد اذن ناتجا ثانويا للعمل النوعى والضرورى لنظام ما ، ولكن أحد أسباب وجود هذا النظام الرئيسية ، وفى هذه الحالة يجرد نشاط الأنظمة وعملها من معناهما الذاتى ويصبح المعنى الظاهرى هو الممكن الوحيد . وحين يحدث ذلك ، فان صناعة الصور الواعية ، أى الاتجاه الصحفى والمعالجة الصحفية ، تؤدى الى خفض قيمة كل معنى ذاتى . وهكذا يصبح بيان المعنى أسلوبا يجرد به المعنى من مضمونه .

الكاتبان : روبرت ليلينفلد

ولد فى ١٩٢٧ ، حاصل على الماجستير فى الاداب من جامعة نيويورك (الموسيقى) ، وعلى الماجستير فى الاداب (علم الاجتماع) من المدرسة الجديدة للابحاث الاجتماعية New School for Social Research مدير مشروع السكان والصحة والخطة بمركز الابحاث الاجتماعية ، سيتى يونيفرستى أوف نيويورك . محاضر فى المدرسة الجديدة للابحاث الاجتماعية . أهم مؤلفاته : المدخل الى الموسيقى ، الموجز فى الهرمونية ، علاوة على عدد كبير من المقالات المتخصصة .

جوزيف بنسمان

ولد عام ١٩٢٣ ، حائز على الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة كولومبيا ، استاذ علم الاجتماع فى سيتى يونيفرستى بنيويورك ، أستاذ زائر فى جامعة لايسستر (انجلترا) خلال العام الجامعى ١٩٦٧ - ١٩٦٨ . أهم مؤلفاته : المدينة الصغيرة فى المجتمع الجماهيرى (بالاشتراك مع آرثر فيدك) ، الجماهير والطبقة البيروقراطية (بالاشتراك مع برنارد روزنبرج) ، تأملات فى دراسات الجماعات (بالاشتراك مع أ. فيدك ، وموريس شتاين) الدولارات والمعنى : دراسة فى السلوك المهنى وفى معنى العمل فى المجتمع الحديث ، هذا فضلا عن عدد كبير من المقالات المنشورة فى المجلات المتخصصة .

المترجم : د. خليل صابات

استاذ الصحافة بكلية آداب القاهرة

ثبت

المقـــال وكاتبه	العنوان الاجنبى واسم الكاتب	رقم العدد وتاريخه
المستقبل للقيم الجمالية بقلم : كارل آشنبرينر	**The Coming Supremacy of The Aesthetic** **by Karl Aschenbrenner**	العـــدد : ٥٠ عـــام : ١٩٦٥
عقلانية ليـــوناردو دافنتشى وفجر العـــلم الكلاسيكى بقلم : بوريس كوزنيتسوف	**The Rationalism of Leonardo Da Vinci and the Dawn of Classical Science** **by Boris Kouznetsov**	العـــدد : ٦٩ عـــام : ١٩٧٠
الوقائع التاريخية واختيارها بقلم : آدم شاف	**Historical Facts and their Selection** **by Adam Schaff**	العـــدد : ٦٩ عـــام : ١٩٧٠
ماركس ونهاية التـــاريخ بقلم : روبرت تكر	**Marx and the End of History** **by Robert C. Tucker**	العـــدد : ٦٤ عـــام : ١٩٦٨
ماضى المجتمعات الريفية ومستقبلها بقلم : هنرى مندراس	**Past and Future of Rural Communities** **by Henri Mendras**	العـــدد : ٦٩ عـــام : ١٩٧٠
الاتجـــــاه الصحفى بقلم : جوزيف بنسمان و روبرت ليلينفلد	**L. Attitude Journalistique** **par** **Joseph Bensman Et** **Robert Lilienfeld**	عـــام : ١٩٧٠ العـــدد : ٦٨

المجلة الدولية للعلوم الاجتمـاعية

مجلة دولية تصدرها هيئة اليونسكو الدولية ، لتوفر من الدراسات الاجتماعية ما هو ضرورى ولازم لتنظيم المجتمعات وتعمق مشكلات العصر ، والوصول الى حلول تواجه المستقبل •

تصدر أربع مرات فى السنة :

يناير ــ ابريل ــ يوليه ــ اكتوبر

صدر العدد الأول يوم الاثنين ١٢ اكتوبر ١٩٧٠ وصدر العدد الثانى يوم الثلاثاء ٥ يناير ١٩٧١ حـوالى مائة صفحة ، وبسعر أقل من التكلفة •

عشرة قروش أو مايعادلها •

الاشتراك ٤٠ قرشا ، خلاف مصاريف البريد •

تصدر عن : مجلة رسالة اليونسكو •

ومركز مطبوعات اليونسكو •

الاشتراك

في المجلات الدوريّة الجديدة ومجلة "رسالة اليونسكو"

تصدر المجلات التالية على التوالي ، عن مجلة رسالة اليونسكو ومركز مطبوعات اليونسكو ، ويباع العدد منها بعشرة قروش • وهو سعر يقل عن تكلفة كل عدد ، تمكينا للقراء العرب ولجمهور الدارسين من الحصول عليه :

- المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية
  يناير ـ أبريل ـ يوليه ـ اكتوبر
- مجلة اليونسكو للمكتبات
  فبراير ـ مايو ـ اغسطس ـ نوفمبر
- العلم والمجتمع
  مارس ـ يونيه ـ سبتمبر ـ ديسمبر
- ديوجين
  مايو ـ نوفمبر

وتصدر مجلة رسالة اليونسكو شهريًا

وتباع بأربعة قروش ، بسعر يقل عن تكلفة كل عدد .
ولضمان الحصول على هذه الأعداد بانتظام يمكن للهيئات والمعاهد العلمية والأفراد الاشتراك فى كل منها بأربعين قرشا فى العام ، عدا مصروفات البريد .

والاشتراك الكامل لكل هذه المجلات هو ١٧٠ قرشا فى العام ، بخلاف أجرة البريد .

مجلة العلم والمجتمع

المجلة الدولية التي تتخطى مشكلات الساعة الى مشكلات الغد .

وتتناول فيما تتناوله من الأمور : تطورات العلم الهائلة ، وكيف تتأثر الحياة بهذه التطورات الى الحد الذى سيجعل من حياة هذا الجيل ، مشهدا من المشاهد المتخفية فى نظر الجيل القادم .

وفى مثل هذا التطور الهائل ، تحتم الضرورة على كل انسان أن يتابع هذا التطور ، ليجدد موقفه من الحياة ، وموقفه من الأجيال التى تتسلم منه أمانة الحياة .

ان تفكير أبناء الغد ، سيكون صورة لهذه التطورات الهائلة والسريعة في مجال العلم ، ومن الخير لأبناء هذا الجيل أن يدرك هذه الحقيقة ليقيم صلته بالشباب على أساس سليم .

ومجلة العلم والمجتمع التى تصدرها هيئة اليونسكو الدولية ، تصدر بالعربية للمرة الأولى ، فى شهور :

مارس ـ يونية ـ سبتمبر ـ ديسمبر .

وتتناول كل هذه الأمور بأقلام خبراء عالميين ، وباختيار خبراء عرب متخصصين . يصدر العدد الثانى فى مارس سنة ١٩٧١

فى قرابة مائة صفحة ، وبعشرة قروش .

الاشتراك السنوى اربعون قرشا غير مصروفات البريد .

تصدر عن : مجلة رسالة اليونسكو

ومركز مطبوعات اليونسكو

مجلة اليونسكو للمكتبات

اول طبعة عربية من المجلة الدولية التى تصدرها هيئة اليونسكو عن المكتبات ، والخدمة المكتبية ، والعناية بشؤون الكتاب .

تصدر اربع مرات فى السنة فى الخامس من شهور :

فبراير - مايو - اغسطس - نوفمبر .

حيث يتناول خبراء الكتب والمكتبات فى العالم شؤون المكتبات والخدمة المكتبية وتيسير القراءة لكل الأعمار والمستويات .

صدر العدد الأول فى نوفمبر ١٩٧٠

وصدر العدد الثانى فى فبراير ١٩٧١

فى ثمانين صفحة - ١٠ قروش

الاشتراك السنوى أربعون قرشا غير مصروفات البريد .

تصدر عن : مجلة رسالة اليونسكو

ومركز مطبوعات اليونسكو

الشركة المصرية للطباعة والنشر صحافة